أليخاندرو كاسونا

تاج من حب وموت

مسرحية عالمية

ترجمة

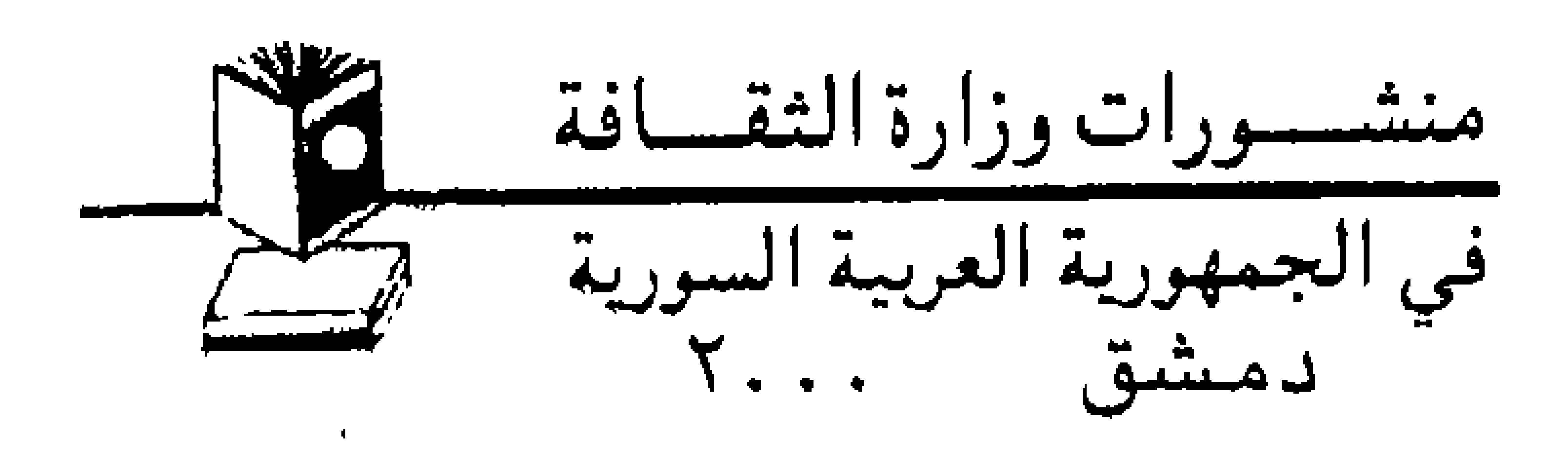
علي أشقر

أليخاندرو كاسونا

تَاجٌ مِنْ حُبٍّ وَمَوْتٍ

ترجمة

علي أشقر



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٠

العنوان الأصلي للكتاب:

ALEJANDRO CASONA
OBRAS
COMPLETAS
TOMO II
AGUILAR
Corona de Amor y de Muerte

تـاج مـن حـب ومـوت = Corona de Amory de Muerte/ أليخاندرو كاسونا؛ ترجمة علي أشقر. - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. - ١٩٩ ص؛ ٢٠ سم. - (مسرحيات عالمية؛ ٥٧).

١- ٨٦٣ ك اس ت ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- كاسونا ٥- أشقر مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع- ١٦٩٥ / ٩/ ٢٠٠٠

مسرحيات عالمية
« ٥٧ »

شخوص المسرحية

- إينيس دي كاسترو.
- أميرة قشتالة.
- أمارانتا، مرافقة إينيس.
- ليونور مرافقة الأميرة.
- إلبيرا مرافقة الأميرة.
- الأمير خوان/طفل.
- بدرو.

– الملك .

– كبير الضباط .

– فراغوسو ، قنّاص .

– ألبار غونثالث مستشار الملك .

–باتشيكو مستشار الملك .

– كويو مستشار الملك .

جنود ، خدم ، فرسان .

العمل يجري في كوئيمبرا عام ١٣٥٥ .

مقدمة

لهذه المسرحية وضع مميز في مسرح كاسونا. فهي لا تنتمي إلى تيار (الفانتازيا) الشعرية التي عرفناها في أعمال سابقة له؛ ولا إلى التيار الواقعي في بعض مسرحياته الأخر، وإن كانت تحمل طابع الواقع باستنادها إلى التاريخ، وشيئاً من الفانتازيا بتداخلها مع الأسطورة، ولوجود مشاهد فيها على شكل حلم. وهي تختلف عنها أيضاً بحدة الصراع وقوة العنصر الدرامي والصلابة التي لا نجدها في مسرحه الميال إلى المصالحة، والبعيد عن الحلول المتطرفة. فلأول مرة، نرى في مسرحه خناجر تشهر ودماً يسفك. لعل الموضوع ذاته أوجب هذا التباين وأوجد هذا التمايز.

الموضوع يدور حول إينيس دي كاسترو التي قُتلتْ في سبيل حبها . والقصة كما ترويها الحوليات البرتغالية هي على النحو التالي :

«زُوِّج الأمير بدرو البرتغالي بإحدى أميرات قشتالة ، لكن الزواج أبطل بسبب هشاشة صحة الأميرة . كان في موكب الأميرة وصيفة جميلة تدعى إينيس ده كاسترو ، أحبها الأمير واتخذها صاحبة له ، ضارباً عرض الحائط بكل التحذيرات . وبعد أعوام من ذلك ، جُلبت أميرة قشتالية أخرى زوجاً لبدرو . بيد أن هذا الأخير أبى أن يفترق عن عشيقته ، فأمر الملك بقتلها ، لذلك ثار الأمير على أبيه وخلعه» .

الأسطورة الشعبية أضافت إلى الحدث ألواناً أُخر . فاتهمت نبلاء معينين بتنفيذ الأمر بقتلها ، وهذا لم يحدث . ونبشت إينيس المقتولة من قبرها ونصبتها ملكة بعد الموت ، وهذا لم يحدث أيضاً . بدأ كاسونا عمله المسرحي من مجيء الأميرة الثانية دون أن يلتفت إلى الأولى ولا إلى الطريقة التي دخلت بها إينيس البرتغال .

يبني المؤلّف، إذاً، من هذه المادة التاريخية-الأسطورية تراجيديا بالمعنى الصحيح للكلمة. أحداثها تجري قبل عصر النهضة (١٣٥٥) وفي أواخر العصور الوسطى. لذلك جعلها تحمل عن وعي مذاق التراجيديا الإغريقية ونكهة تراجيديا عصر النهضة الكلاسيكي.

ففيها نرى الأقدار تحدد أحياناً سير الأحداث، وتجعل قدرة الأشخاص على التعامل معها محدودة، فالأحداث هنا تسبق الأشخاص وكأنها تقف متربصة بهم في الطريق.

فالأميرة القادمة من قشتالة ما كانت تعلم شيئاً عن غراميات الأمير حتى وطئت قدماها أرض البرتغال؛ ولا الأمير كان يعلم بتحرك الأميرة إلا بعد فوات الأوان؛ وأهم من هذا وذاك، جهل الملك باستمرار العلاقة بين ابنه وبين إينيس المنفية؛ وجهله وجهل البلاط أيضاً بزواج الأمير سراً بها؛ وما كان يُظنّ في البداية علاقة غرامية يمكن أن تحل بطريقة أو بأخرى، ما لبث أن تحول إلى عقدة يصعب حلها، لأن الكنيسة لا تبيح تعدد الزوجات، ولا الطلاق؛

يضاف إلى ذلك أن الأمير ابن وحيد، ولا يوجد وريث آخر بديل للعرش.

وفيها من تراجيديا عصر النهضة، طبيعة الأشخاص (ملوك ونبلاء)، وصراع الأهواء العنيفة، والإرادات القوية التي لا تنثني أمام أي عائق حتى تحقق غايتها أو تتكسّر.

فالملك لا يرى شيئاً سوى مصلحة العرش والدولة، وما خلا ذلك يعده نافلاً لا قيمة له. حتى أحفاده لا يريد أن يتعرف عليهم، لأنهم في نظره غير شرعيين، أي «غير قانونيين».

وحين يقول له ابنه الأمير بدرو: «أتنكر دمك؟» يجيبه: «الدم لا يهمني. أنا القانون، وما هو خارج القانون بعيد عني». فزواج الأمير شأن من شؤون الدولة، وليس مسألة شخصية: «زواج الأمير لا شأن له بحياته الخاصة».

أما إينيس فلا تبصر أمراً آخر غير حبها لبِدْرو، وحب بدرو لها. فهي عاشت به وله وماتت من أجله. وبدرو مستعد لقبول كل شيء إلا التفريط بإينيس حتى اضطر إلى حمل السلاح في النهاية على أبيه.

جمال المسرحية يأتي في جانب هام منه من التناقض في شخصيتي الملك وإينيس، ومن تكامل شخصية بدرو.

فالملك ذو شخصية قاسية وقوية، ويملك كل الوسائل إزاء إينيس وبدرو، لكنه يعاني من ضعف أيضاً. ويتجلّى ضعفه بتردده. فهو بين إقدام وإحجام، وأخذ ورد، ووعد ووعيد وجزر ومد، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى. فهو يقول لإينيس: «لا تعذ بيني بالشك فوق عذابي؛ أرأيت حاكماً يتوسل إلى متهم؟ إذاً، أنا ذاك الحاكم... أحلفك بحبك وأبنائك، اعفيني من قتلك».

أما إينيس فضعيفة، لأنها لا تملك أية وسيلة. لكنها قوية بحبها، و«بعنادها»، وإصرارها على هذا الحب. فما رأيناه عند الملك تردّداً، نجده عندها تصميماً وإيماناً بحب يرقى إلى مستوى «عقيدة» تبذل كل شيء في سبيلها ولوكان الثمن حياتها. تقول للملك:

«في رقعة الشطرنج التي وضعنا الله فيها، لست إلا بيدقاً، وأنت تحرك البيادق».

فيجيبها الملك : -«توجد حركة واحدة ممكنة» .

فتجيبه «-توجد حركتان : بدرو أو الموت . فحرّك بيدقك» .

سرّ قوتها في ضعفها، وضعف الموقف العام ذاته . فالأمير بدرو، وهو الوريث الوحيد، قد يعرّض العرش للخطر، إذا ظلّ على علاقته بها . قوتها هي أنها حوّلت قضيتها من مستوى فردي إلى قضية جماعية، وأصبحت رمزاً يتغنّى به الشعراء، وشعاراً ينقش . صارت فكرة وعاطفة استحوذت على الجمهور . فالظاهرة أو الفكرة (وصار حبها كذلك) يمكن أن تُهزم في الفرد، ولكنها تنتصر في الجموع، وما ظهورها على المسرح بعد وفاتها وتتويجها ملكة إلا تتويج لهذه الفكرة، ورمز لانتصار الحب كما يفهمه الجمهور، وكما يفهمه كاسونا الذي يُعدّ الحب أحد مقومات مسرحه؛ فلا عجب إذاً، إن جارى الأسطورة في الحل الذي كان مفتوحاً على احتمالات شتى . أما شخصية بدرو فهي أكثر تكاملاً ويجمع بين الشخصيتين معاً : إرادة الملك وطبعه، وتصميم إينيس

وإصرارها. فهو مستعد لتقبل كل شيء إلا التفريط بإينيس. ففي خاتمة حوار مشحون بالانفعال بينه وبين أبيه، يقول له الملك: «أهذه كلمتك الأخيرة؟»، فيجيبه: «الأخيرة والوحيدة. فإذا ما نزعت الكلمات مني كلها، وظلت كلمة منها معلقة في حلقي فسوف تردد: إينيس! إينيس! إينيس!». المسألة عند الملك في أن يكون التاج أو لا يكون؛ لكنها عند بدرو: أن تكون إينيس أو لا شيء.

قوة بدرو أنه يسير في طريق واحدة. أمّا الملك وإينيس فيصارعان كلاهما على جبهتين: خارجية وداخلية. الملك يصارع خارجياً لفصم عرى العلاقة بين إينيس وبدرو، وإرغام هذا الأخير على الزواج بأميرة قشتالية. ويصارع على جبهة داخلية لا تقلّ خطراً عن الأولى كيلا يقع في شرك «الشفقة» على ابنه أو على إينيس، أو أحفاده. يقول: «الحكم وظيفة لا تقبل الضعف. أنا في هذه السن، قاسٍ على الرجال، عجوز في نظر النساء، والخطر الوحيد الذي يهدّدني، قد يكون طفلاً؛ كل ما أطلبه ألا أسقط في الشفقة». وتدرك إينيس

أهمية هذا الجانب، فتجمع بين الملك وحفيده الذي يجهل أنه جده، فيسترسلان في لعبة بريئة ويكاد الملك ينسى نفسه حتى يوقظه مجيء الأمير والد الطفل من ذلك الحلم اللذيذ الذي عاشه دقائق معدودات، فيعقب: «شكراً لوصولك في الوقت الملائم. كدت أسقط في أقدم الكمائن. . . قل لإينيس إن لعبتها أخفقت».

وإينيس تصارع على جبهتين. تصارع القصر والملك من جهة، وتصارع داخلياً حفاظاً على حبها من أن يتفكك وينهار من الداخل بمرور الوقت وغزو عدوّ اسمه الملل، فيتخلى بدرو عن حبها، أو يغدو حبه لها «عادة، ولذته تعباً». أو تمله هي نفسها، فتتخلى عن حبه «دون أن تدري كيف». فلما زار طيفها الأمير بدرو في الغابة، بينت له المخاوف التي عاشتها والقلق الذي انتابها حفاظاً على هذا الحب. عشر سنوات «عاشتها بسعادة فائقة وبخوف دائم في آن واحد».

هذا عن الشخوص الرئيسة، لكن، ماذا عن الأشخاص الثانويين؟ كاسونا لا يهملها أبداً، بل يبرز

ملامحها بوضوح ويرسمها بعناية ويعطيها أبعادها الحقيقية مهما كان حظها من الظهور على الخشبة، سواء كانت كونستانثا أميرة قشتالة، أم النبلاء الثلاثة، أم كبير الضباط، أم الطفل خوان.

المسرحية مبنية بإحكام. قليلون هم الدراميون الذين يتقنون اللعبة المسرحية كما يتقنها كاسونا. يتجلى ذلك في ميله إلى الاقتصاد والتركيز، والحوار القصير الذي يتدفق بحيوية ورشاقة لا يقطعه شيء تقريباً، فتقل الحواشي والإشارات إلى الحد الأدنى حتى تكاد تنعدم في بعض المشاهد. فلا نجد «وقتاً ضائعاً»، ولا «مساحات فارغة». يجرد كاسونا الشخوص تقريباً من أوضاعها الاجتماعية (الملك، النبلاء، الأمراء) خدمة لسيولة الحوار؛ فيجري الخطاب مباشرة دون صيغ التبجيل والمجاملة؛ يفر المؤلف من الاسترسال والمونولوجات المملة، ويستثمر المشهد استثماراً ناجعاً وصولاً إلى أكثر من غاية واحدة أحياناً، كما نرى في المشهد الذي يجمع بين الطفل خوان وجدِّه الملك، فقد وظّفه المؤلف لخدمة المضمون

والشكل في آن واحد. من جهة المضمون، لاحظنا كيف حاولت إينيس أن تؤثّر به على إرادة الملك. أما من ناحية الشكل، فقد جاء في منتصف المسرحية تقريباً كأنه استراحة لالتقاط الأنفاس، والترويح وترطيب الأجواء، أو «التخفيف من إصر الفاجعة»، كما يقول المرحوم دريني خشبة. فبعد هذه المشاهد العاصفة المشحونة بالتوتر الدرامي سواء مشهد الملك والأمير، أو مشهد هذه الأخيرة وأميرة قشتالة، أو مشهد هذا الأخير وإينيس، كان ضرورياً أن يجيء هذا المشهد تلطيفاً لحدّة الصراع وعنفه خشية أن ينفجر قبل أن يصل إلى «الذروة».

لغة كاسونا لغة شعرية متميزة ترقى إلى أعلى مستوى معروف في الأدب العالمي، فيحاول أن يعتصر من اللغة كل قدرتها على الإيحاء والتعبير. ولن أفسد المتعة على القارئ باقتطاع جمل بعينها، مستبقاً قراءته النص.

يعقد الناقد الإسباني فيدريكو كارولوس روبليس مقارنة بين هذه المسرحية ومعاصرتها «الملكة الميتة»

لهنري ديمونترلان الفرنسي التي تتناول الموضوع ذاته، فيقول:

«... أعتقد أن مونترلان يحرم شخوصه من «الدم واللحم» لكي يحولها إلى نماذج يمثل كل منها معنى من المعاني. «الملكة الميتة» لها جمال قطعة متحفي؛ أما «تاج من حب وموت» فهي لحسن حظ المسرح مختلفة عنها جداً؛ لأن كاسونا عرف أن يلتقط من الحدث الخالد قيمه الإنسانية الدائمة، مجتمعة ومنفردة. عمل كاسونا فيه من الحرارة بقدر ما في عمل مونترلان من البرودة.

ولئن كان العملان مختلفين بالمضمون والهدف، فهما يختلفان جذرياً بالشكل أيضاً سواء من الناحية الأدبية أم المسرحية. فإذا كان الجانب الأدبي مثيراً للإعجاب عند مونترلان، فإن الجانبين الأدبي والمسرحي لا يقلان عظمة عند كاسونا. لكنهما عند هذا الأخير يتطابقان على شكل تام مع «المسرح - الحياة»، مسرح يسعى جاهداً «للخروج من المسرح» ليتحول إلى أحداث معيشة، وعواطف

ملموسة. أما الحياة - مسرح، كما يؤثرها مونترلان، فأقل شأناً...».

لئن عجز الملك عن أن ينتزع من إينيس «كلمة واحدة» تريحه وتعفيه من الجرم ولم يستطع، فلعل كاسونا استطاع أن ينتزع منها «سراً أخيراً». سرّ الحب الذي يرقى إلى مرتبة الإيمان و«الشهادة»، وينتصر في النهاية في نفوس الناس والأجيال اللاحقة.

وعسى أن نكون قدمنا للقارئ العربي نصاً جميلاً ومتميزاً.

علي أشقر

« إينيس الجميلة، نشرت السكينة

في ربوع الموند يغو المشوقة...

وعلّمت الجبال والأعشاب

اسماً لا يكتب في الصدر بحبر.»

« كامويس »

قليلة هي المواضيع التي أثارت خيال الروائيين وكتّاب الدراما، كما أثارها حب إينيس ده كاسترو وموتها والتقلّبات التي مرت بها. ذلك أن الواقع التاريخي ربما اختلط بأعزّ موضوع شعري في كل الأزمنة: « موضوع الحب الذي ينتصر على الموت ».

كل بلد وكل عصر التفت بعيني الروح صوب تلك الغاليسية التي صبغت ذات يوم بالدم وبالعالمية تاريخ

البرتغال. وتتعدّد الأجوبة عن السؤال الكبير حول موتها، متخلّية عن تقييدات التاريخ لتدخل بقوّة عالم الأسطورة الأرحب. فمنذ مقطوعة ريسندي القديمة حتى أشعار كاموينس المشهورة اجتاز موضوع إينيس حدود البرتغال الغنائية؛ فحُمِّل بالعاطفة في إسبانيا، وبالموسيقى في إيطاليا، وبالعقل في فرنسا، وبالرومانسية الحزينة في ألمانيا.

في مجال المسرح وحده، عدّ أنتيرو ده فيغيريدو في دراسته حول « الهذيان الكبير » حتى ٤٤ ترجمة درامية مختلفة لها، بينها مسرحية لوبه ده بيغا المفقودة لسوء الحظ. وهكذا لعب كل مؤلف مباراته الخاصة على رقعة الشطرنج ذاتها بالوجوه نفسها، لكن برؤية جديدة.

لئن كان التاريخ المصدر الأول لهذه الترجمة الخامسة والأربعين، فقد رضيت لها بعض التحريفات التقليدية في الأسطورة، مقحماً إلى جانبها، بحرية كاملة، كلَّ عناصر الفانتازيا التي بدت لي نافعة وضرورية فنيّاً للعقلية المعاصرة. لا حاجة بي لأضيف أن بعض التغيير

في تسلسل الأحداث الواضحة زمنياً وفكرياً- على وجه خاص في شخص الأميرة- هو من محض اختياري، مخضعاً الحقيقة إلى المصلحة الدرامية. من جهة أخرى، هذه التجاوزات أقلّ مما نلحظه في مسرحية فيّريرا الكلاسيكية، وهي ليست كالقائمة في الترجمة الباروكيّة لبيليث دي غيبارا، وأقل بشكل مطلق من تلك التي أدخلها مونترلان.

إذا كنت قد غامرت بكتابة ترجمة أخرى مختلفة، بعد كل هذه التراجم البارزة، فلأنني آمل بإنتزاع سرّ أخير من طيف إينيس الحلو، المدهشة بإرادتها بالاستشهاد وبالقوّة المزدوجة لحبّها جسدياً وصوفياً. لأن هوى يرقى إلى مستوى التصوّف يمكنه وحده أن يمدّها بالقوى اللازمة لتكمل حتى النهاية جمال مصيرها الوحشي.

التعبير عن جواب القرون هذا، بصوت الحاضر وكلمته إغراء كبير. إن لم أوفّق إلى ذلك فحسبي أن تكون هذه الترجمة تقدمة جديدة لتاج إينيس الكبير.

أليخاندرو كاسونا

الفصل الأول

قاعة في قصر ألكازار في كوئيمبرا، لها دفء غرفة دراسية. نافذة كبيرة تطلّ على ضفة نهر الموينديغو. سجّادة من طراز قوطي فيها رسوم قلاع ذهبية اللون، وشعار البرتغال المخمّس [1] الأزرق والفضي. باب واحد جانبي. وسط هذا الديكور الملكي المتقشّف تفاجئنا خرائط بحار ما تزال اسطورية، وآلات فلكيّة مدوّرة، ومخططات سفن.

قبل رفع الستارة تُسمع دقات أجراس مرحة تمتد لحظة على الوجوه الساكنة.

الأميرة- ضابط كبير- ليونور- إلبيرا ووصيفان. الأميرة

---

(١) على شكل وردة رياح ذات خمسة أضلاع، رُسم على كل ضلع منها خمسة شعارات. (المترجم).

أمام النافذة تتأمل المنظر بينما تستمع إلى البيان الذي يتلوه عليها الضابط .

الضابط : " مئة فارس سيحملون على أطراف الأسنة ألوان الأميرة . ومئة فتاة من ذوات النسب الرفيع سيشكلن موكبها متّوجات بالزهور الثلاث الرمزية " . أزهار البرتغال الرمزية الثلاث هي إكليل الجبل والقرنفل ورعي الحمام . لكن ، إن كانت الأميرة تؤثر أزهار إسبانيا ... (صمت) . سيدتي ...

إلبيرا : (بصوت خفيض) . يقيناً أنها لم تسمع .

ليونور : أو أنها تستمع إلى شيء آخر . حين تنظر الأميرة إلى البعيد صامتة فمعنى ذلك أنها تتحدث إلى نفسها .

الأميرة : (دون أن تلتفت) . لا يهم . بشأن الأزهار أسمعكم بأذن ثالثة : إكليل الجبل والقرنفل ورعي الحمام . تابع .

الضابط : ملكنا يرى أن البحر سؤال دائم ينبغي لنا أن نجيب عنه ذات يوم . أأتابع ؟

الأميرة: تابع!

الضابط: تكريماً للعروس، ستُدَقُّ كل الأجراس شكراً وحمداً. وستزدان كل بيوت كوئيمبرا بالبياض، لابسة ثياب العرس.

الأميرة: إني أراها: ملاءات في النوافذ، وأعلام بيض على السطوح... تبدو مدينة ترفع راية الاستسلام.

الضابط: بل مدينة تُسلِم قيادها.

الأميرة: وتلك الأشجار، أتلبس البياض أيضاً؟ أهو أمر آخر من أوامر الملك؟

الضابط: من أوامر الصيف. إنه البرتقال المزهر. برتقال نهرنا مونديغو.

الأميرة: ولماذا هو مونديغو نهركم؟

الضابط: لأنه النهر الوحيد الذي ينبع داخل أراضي البرتغال. الأنهار الأُخرتأتينا من إسبانيا كعرائس ملوكنا.

إليرا: مذ عبرنا الحدود والبرتقال يخرج لاستقبالنا في كل طريق.

اليونور: يشبه فلاحين نظيفين يُهرعون يوم العيد حاملين أغصاناً مزهرة.

الضابط: البرتقال المزهر هو دائماً من ضيوف العرس.

الأميرة: (ترفع يدها محيية.) شكراً لكِ يا نوافذ كوئيمبرا، شكراً للقوارب في البحر، شكراً لبرتقال مونديغو. (تترك الستارة تسقط وتتقدم). طريف! حتى الأشجار في بلدكم أكثر لطفاً من بعض الرجال.

الضابط: أتجرأ أحد فأخلّ بواجب الاحترام نحوك؟

الأميرة: رجل واحد.

الضابط: ما اسمه؟

الأميرة: ولأي شيء؟ هو عالي المقام جداً.

الضابط : مهما يكن مقامه؛ عُهِد إلي بأمر مرافقتك. لا يمكن أن أدع خطأ تجاهك دون عقاب، ولو كانتْ كلمة واحدة.

الأميرة: لم يكلمني.

الضابط : ولو نظرة.

الأميرة: لم ينظر إلي.

الضابط : أين خطؤه، إذاً؟

الأميرة: الاثنان معاً: لم يكلمني، ولم ينظر إلي. وإن يكن أول واجباته أن يفعلهما. أأنت بحاجة لأقول لك اسمه؟

الضابط : (يطأطىء رأسه مضطرباً.) معذرة!

الأميرة: ما فائدة هذه السلسة من التكريم إن كان ينقصها أول ما ينبغي نحو امرأة؟ أين الأمير؟

الضابط : أتظنين أنني أعرف؟ غادرت البرتغال منذ خمسة عشر يوماً لاصطحابك.

الأميرة : علمت أنك خير أصدقائه. إن شئت أن تكون صديقي، أجب: أين هو؟

الضابط : أقسم لك إنني لا أعلم.

الأميرة : لكنك تخمّن. أليس كذلك؟

الضابط : أرجوك ألا تسأليني.

الأميرة : شكراً لك ـ حتى الآن تعلمت أن أشكر على الكلمات ما دمت عروساً. كما أرى، حان الوقت لأشكر على الصمت. هذا ثاني شيء أدين به لك.

الضابط : لا أتذكر الشيء الأول.

الأميرة : كان منذ ثلاثة أيام في الفندق على الطريق. عصبة طلاب راحت تغني تحت نافذتي حكاية حب. ولمّا وصلت في غنائها إلى أهم نقطة أسكَتَها رجالك بالسياط. لماذا؟

الضابط : لأنها كانت تحرمك من النوم .

الأميرة : غبيّ جداً. أجفل الطلاب النوم من عينيّ ساعة .
لكن، بإسكاتهم افتقدته ثلاث ليالٍ وأنا أفكر في خاتمة الأغنية .

الضابط : أكانت القصة مثيرة جداً؟

الأميرة : في نظري كثيراً. لأنها تذكر أميراً صيّاداً كأميركم ...
وخطيبة إسبانية وافدة ... ماذا كانت تقول الأشعار :

من إسبانيا جاءت العروس

في طريقها إلى البرتغال .

جاءت تغزو قلعة

ووجدت القلعة مغزوّة .

أليست كذلك؟

الضابط : لست أدري . ذاكرتي ضعيفة في حفظ الشعر .

الأميرة : أتذكرينها يا إلبيرا؟

إلبيرا : حين أسمع الغناء أنام في الحال .

الأميرة : وأنت يا ليونور؟

ليونور : أنا كنت أصلّي صلواتي .

الأميرة : أهنئك أيها الضابط ! أضف إلى لائحة التكريم صمتاً آخر .

الضابط : الملك !

الأميرة ومرافقتاها : سيدنا !

المذكورون والملك مع نبلائه: كويّو، باتشيكو، وألبار غُونثالِث .

النبلاء : سيدتنا ...

الملك : انهضي يا كونستانثا . أطلب منك كأب ، وأستقبلك كابنة . لا يمكن لقشتالة أن تهدي إليّ هديّة خيراً منك .

الأميرة: شكراً، يا سيدي. لكن، قبل أن أخاطبك بتواضع كابنة وكبر تغالية، دعني أكلمك لآخر مرّة كإسبانية وبنت ملوك.

الملك: لاأفهم هذه النظرة ولا هذه اللهجة. هذا الصباح كنتِ مختلفة جداً. أين تلك البسمة التي بهرتنا حين وصولك؟

الأميرة: أحسّ أني فقدتها. لكن، إن كانت جزءاً من مهري فسأحاول استعادتها.

الملك: وتلكما العينان المرحتان المفعمتان بالأسئلة؟ وتلك الارتعاشة الموحية بالسعادة؟

الأميرة: سعادتي يمكن أن تؤجل، لكن كرامتي لا.

الملك: أهناك شكوى؟ إذاً، أزيلها بمجرّد علمي بها. (إيماءة لصرف أتباعه.) أيها السادة...

الأميرة: كلا! لقد أُهنْتُ علناً. وجوابي سيكون علناً أيضاً.

الملك : لا بأس ! تكلّمي.

الأميرة : أبي وسيدي : شعبانا مزّقتهما حرب أخوة، انتهت البارحة. لكنها يمكن أن تبدأ غداً. ولمنعها أُتفِقَ على تزويجي بابنكم. دعوتموني «عروس السلام»، وجئت سعيدة للقيام بهذه المهمة الجميلة. لكن، قبل أن أخطو خطوة أخرى، عليّ أن أذكركم أن قشتالة لم تكن المبادرة إلى طلب الزواج، وإنما البرتغال. فعلى عاتق من يقع الذنب إن رفضني هذا البلد؟

الملك : لكن، ماذا تقولين؟ ألم يستقبلك شعبي بالأحضان؟

الأميرة : لا أشكو شعبك.

الملك : ألم يحضر إلى كوئيمبرا كل نبلاء البلد لتقديم التحية لك؟

الأميرة : لا أشكو سيدات بلدك ولا نبلاءك.

الملك : البلاط ذاته غادر لشبونة لاستقبالك في منتصف الطريق.

الأميرة : أعلم ذلك. وأعلم أيضاً أن قواربكم ومدنكم، حتى أشجار أرضكم تحمل ألواني. لكني لم آتِ لأتزوج قواربكم ولا برتقالكم. أين ابنك؟

الملك : غير ممكن ... (يلتفت إلى نبلائه.) ألم يحضر الأمير إلى القصر؟

كويو : خرج في رحلة صيد، وأرسلنا في إثره رسلاً في كل الاتجاهات.

باتشيكو : في هذه اللحظة، أربعون منادياً يدقّون الطبول من جبل إلى جبل.

الأميرة : حطّابو الجبل هبطوا لتحيتي حاملين أغصان الغار. أيعرفون خيراً من الأمير لغة الطبول؟

باتشيكو : ربما كان بعيداً. أحياناً يطارد ذئاباً فيتوغل أياماً عدّة في الجبل.

الأميرة: وفتياتكم جئن من بساتين الجرفة، ومن كستناء مينيو. أيمكن أن يتخلّف عنهن خير فرسان البرتغال؟

ألبار: لعله ضاع وسط ضباب القمم العالية.

كويو: أو لعله جريح في كوخ من أكواخ الرعاة. وليست هي المرة الأولى.

الملك: هذا أجدى له. في هذه الحالة لا يشفع له شيء إلا إذا كان جريحاً.

الأميرة: ولا هو جريح أيها الملك ألفونسو. في هذه الحالة، حتى الجرح لا يشفع. فالضابط الذي حمل إليّ نبأ انتصاركم في سالادو كان صوته يتغرغر بالدم. لكنه لم يسقط عن جواده حتى أبلغني آخر كلمة. الفرسان يموتون فيما بعد.

الملك: لا تعجلي بالحكم عليه. تريّثي.

الأميرة: لا أستطيع . اطلب مني صبراً حين أكون زوجة . والآن، الأمر في غاية العجل .

الملك : ماذا تعنين؟

الأميرة: لا قشتالة ولا أنا نعرف الانتظار . ولن أبيت في كوئيمبرا هذه الليلة، إن لم يؤخذ لي قبل المغيب، ممن أهانني . معذرة أيها الملك الصالح .

الملك : على العكس . يعجبني دائماً أولئك الذين يقدمون على فعل ما أفعله لو كنت مكانهم . تعالي إلى ذراعي . (يعانقها) . أسمعت أيها الضابط؟ لا جراح تفيد، ولا ذئاب جبال . آتني بابني حيثما كان .

الضابط: سيدي ... (يتأهب للخروج . . توقفه الأميرة ...) .

الأميرة: لا تبحث عنه بعيداً جداً . أغنية الطلاب تلك كانت تتحدث عن «جيد بلشون [1]» وعينين من زمرد وعش دافيء على ضفاف نهركم . لا تنس ذلك .

---

(١) طائر مائي له ساقان طويلتان، وعنق طويل في أناقة وظرف . وهو مالك الحزين . وآثرنا الاسم الذي يطلق عليه في مصر وساحل بلاد الشام للاختصار . (المترجم) .

الملك : أية أغنية ، وأي طلاب هؤلاء ؟

الضابط : أمر تافه يا سيدي . يبدو أن الأميرة مشغولة بأشعار تجري هنا من فم إلى فم .

الملك : ياه ! وماذا يهمك قول الشعراء؟

الأميرة : أنا أحملهم في دمي . أبي ، الأمير خوان مانويل ، كتب قصصاً مشهورة . وجدي ألفونسو الحكيم كان يكرس للعذراء أناشيد على طريقة التروبادور .

الملك : كذلك والدي الملك ديونيس كان يكتب أغاني غرام ، لكن ، خلال استراحة بين حربين .

الأميرة : ربما نُسيت معاركه ذات يوم . لكن شعره سيتذكره الناس .

الملك : باختصار : أيمكنني أن أعرف لماذا شُغلتِ بهذه القصة السعيدة؟

الأميرة : ببساطة، لأنه لم يسمح لي بسماع الخاتمة؛ لكن مطلعها كان واعداً. أليس كذلك، يا إلبيرا ؟

إلبيرا : سبق أن قلت : عند سماع الغناء ...

الأميرة : نعم، تنامين فوراً. لكنني الآن آمرك : استيقظي !

إلبيرا : هي قصة فيها شيء عن أب عليه واجب، وابن متمرد له حبيبة .

الأميرة : حبيبة؟ أكان الطلاب يتحدثون عن حبيبة؟

ليونور : هم قالوا صديقة . لكن، ألا تعني الشيء ذاته في البرتغالية؟

الأميرة : آه! أهذه كانت صلواتك؟ تابعي، تابعي، أنت .

ليونور : أتذكر فقط أن الأب فرق بينهما . وأن الحبيبة تسكن مختبئة على ضفة نهر .

الأميرة : وأن العاشق يذهب ليراها ليلاً وقد جعل نعل حصانه معكوسة ليضلل العيون .

الملك : شعراؤك خيالهم قصير . أنا أعرف مئة قصيدة تبدأ البداية ذاتها . وبعدئذ؟

الأميرة: بعدئذ، أمر الضابط بإيقاف الأغنية ضرباً بالسياط . وها أنا أنتظر تتمة النصف الآخر .

الملك : إن كان الأمر مجرد فضول فسآمر بإحضار الطلاب .

الأميرة: لا لزوم لذلك . لأن ابنك سيشرفني أخيراً بالقدوم لتحيتي . هو نفسه سيقص علي القصة كاملة، وهو خير من يعرفها . وفوق ذلك، هو الوحيد الذي مايزال لديه فسحة لتغيير نهايتها . سيدي ... سادتي : وداعاً . (تخرج مع مرافقتيها . ووراءهن الوصيفان) .

الملك ، الضابط ، كويو ، ألبار ، باتشيكو .

الملك : وحق المسيح، كنت على وشك الانفجار . أعطني رجالاً أخضعهم؛ أعطني خيولاً أروضها . لكن، حماني الله من امرأة مجروحة الكبرياء .

باتشيكو: مغرورة هذه القشتالية ...

الملك: ما يحز في ّليس غرورها، وإنما هذا السلاح ذو الحدين، وهذه الطعنات الدقيقة من أيدٍ عادتها شغل الإبرة. ماذا تعني قصة النعل المعكوسة؟

الضابط: الأميرة لم تحتج إلى كبير عناء حتى خمنت الأمر.

الملك: هي امرأة. لكنني لا أعرف الألغاز ولا اللعب بها. بكلمة واحدة: أعاد ابني إلى عشيقته؟

كويو: عاد! ... في الواقع، هو لم يفترق عنها قطّ.

الملك: وأخفيتم ذلك عني؟

باتشيكو: أنت حظرت تحظيراً قاطعاً كل إشارة إلى ذلك الحب.

الملك: وبوجود الأميرة الآن، لماذا لم تحذروني مسبقاً؟

كويو: كنا نأمل أن يرد وجودها ابنك إلى صوابه.

ألبار : من كان يخمن أنه سيصل إلى هذا المدى !

الملك : لعلكم لا تعرفونه؟ هو مهر دون لجام .

باتشيكو : وما كنا نتخيل أن تكون جاهلاً بحقيقة الموقف .

الملك : مذ صار مستحيلاً أن نعيش معاً ، أكاد لا أراه ، ولا أتبادل معه كلمة واحدة .

باتشيكو : صار حديث البلد كله .

ألبار : هما نفسهما لا يحرصان [1] على اتخاذ أدنى احتياط .

كويو : وها أنت رأيت الفضيحة تجري من فم إلى فم ، ويُغنّى بها في الفنادق على الطرقات ...

الملك : هذا ما يجري دائماً : إذا تعلّق الأمر بزوجة ، كل الناس تعرف ماعدا الزوج . وفي حالة الابن ، كل الناس تعلم إلا الأب . إذاً ، هذه المرأة مرة أخرى؟ ألم يكفها أنها أقصيت عن البلاط؟

---

(١) يقصد الأمير بدرو وعشيقته .

الضابط : عفواً. لكنها الآن لم تُخلّ بأمر النفي. البلاط نفسه جاء إلى كوئيمبرا، أي إلى أبواب منزلها.

الملك : إذاً، هذا هو كوخ الرعاة الذي لجأ إليه جريحاً؟ أما كان بإمكانه أن يخفي نزواته بعيداً ويقوم بواجباته علناً؟

الضابط : عساها تكون نزوة فقط. لسوء الحظ هو هوى عنيف.

الملك : لا يحق للأمير الاستسلام للنزوات!

باتشيكو : البارحة توجهنا إليه في مسعى أخير لنوفر عليه هذه اللحظة. لكن سعينا راح سدى.

كويو : هذه المرأة أعمته حتى صار يبذل في سبيلها كل شيء، حسناً كان أم سيئاً. إنها كلماته ذاتها.

الملك : آه! إذاً، هو تحدٍّ؟ عظيم! حيثما ينته التعقل، تبدأ الأوامر. أيها الضابط: قبل مغيب شمس هذا اليوم، سيقبل ابني راكعاً يد الأميرة. وأنت مسؤول عن ذلك.

ستار

المنظر الثاني[٢]

في دارة سانتا كلارا على ضفاف المونديغو. طابق أرضي له مرقب على النهر.

على المسرح بدرو وفراغوسو الذي كان يشد المهمازين.

فراغوسو: من المؤسف أن ندع هذا التاجر ينصرف بصقوره الإفريقية.

بدرو: الأرض الحارة مرتع وخيم لنشأة الصقور. أفضل صقوري الإسلندية والسويدية.

---

(٢) استخدم كاسونا هذا المصطلح بدلا من كلمة مشهد المألوفة لضرورة العرض. ذلك أن الستارة تسدل خلال الفصل الواحد وليس في نهايته فقط كما جرت العادة، ويتغيّر الديكور وكأن «المنظر» فصل صغير ضمن الفصل الرئيس. (المترجم).

فراغوسو: لو رأيتها! هي طيعة كالكلاب، لكنها فتاكة ساعة الصراع. تهاجم الحمامة في الجو وتنقض على العنز البرية بين الصخور في آن واحد.

بدرو: لكن، على شكل غادر دائماً.

فراغوسو: في أقل من ساعتين رأيتها تقنص أكثر من عشرين فريسة.

بدرو: اتنقض عليها انقضاضاً أم تدوم حولها في حلقات كالباشق؟

فراغوسو: بل تطير في دوائر.

بدرو: إذاً، يكفي يا فراغوسو. لا يجاريك في الصيد أحد، لكن الهواء ليس من اختصاصك.

فراغوسو: مع ذلك، أقسم أن فيها سمات الصقر النبيل الأربع: بؤبؤاً أسود، رأساً مدوراً، ومدى جناحين بطول الجسم مرتين، وقوادم أجنحتها تامة.

بدرو: رغم ذلك، لا تعدو كونها جبانة وسارقة. لكن، ضعها وسط العاصفة، واكشف الغطاء عن رؤوسها، فمن يشمخ برأسه ويتحد الريح هو الصقر النبيل. أول شرط هو الكبرياء.

فراغوسو: منذ فترة، أراك تختار صقورك باحثاً فيها عن صفات هي من خصائص البشر.

بدرو: لذلك، كانت الجياد والكلاب خير أصدقائي.

فراغوسو: إذاً، هذه الصقور الإفريقية؟...

بدرو: لا أريد أن أراها. أتعلم لماذا هي دموية وطيعة في آن واحد؟ لأنها ربيت في القفص من سلالة عاشت كلها في الأقفاص أيضاً. أمّا ما ولد منه حراً، فهو أكثر تمرداً، لكنه الأفضل. (تسمع بعيداً أجراس كوئيمبرا تدق شكراً. تدخل أمارانتا.)

المذكوران وأمارانتا

أمارانتا: والآن؟ ألن تقولا لي مرة أخرى إني أحلم ؟ أولاً، الطبول؛ ثم الرايات؛ والآن، الأجراس.

بدرو: أية أجراس؟

أمارانتا: أجراس كوئيمبرا كلها. أميزها واحداً واحداً وهي تدق: طنين أجراس سيو؛ رنين سانتانا؛ برونز سانتاكروث... وجرس سانتاكلارا، هنا، قريباً منا على النهر.

بدرو: أتسمع أي جرس يا فراغوسو؟

فراغوسو: لا أسمع شيئاً، يا سيدي.

أمارانتا: أتريدان أن تدفعا بي إلى الجنون؟ ومن هذا المرقب ألا تريان شيئاً أيضاً؟ (يطلان كلاهما.)

بدرو: ما نراه دائماً: ماء الموندیغو الأخضر القاتم!

أمارانتا: أليست الطرقات كلها مفروشة بالحصر؟ ألا ينزل الناس من سييرا- ايستريا أزواجاً أزواجاً على الجياد متوجين بالأغصان؟ ألا ترتدي كوئيمبرا كلها البياض؟

بدرو: أترى أي شيء أبيض يا فراغوسو؟

فراغوسو: لا أرى شيئاً يا سيدي.

بدرو: أليس كل شيء كالبارحة؟

فراغوسو: كل شيء.

بدرو: حسن جداً. هيا أطعمي الصقور. وقدمي للجرحى منها مخ العظام مجبولاً بمسحوق القرفة. (يخرج فراغوسو.) أسمعت زوجك؟

أمارانتا: آه، كلا! لا أحد ينكر علي ما رأته عيناي.

بدرو: لعلك رأيت أحلاماً!

أمارانتا: وأذناي؟ أأسمع أحلاماً أيضاً؟

بدرو: اسمعي، يا أمارانتا: مهما يكن رأسك صغيراً، ضعي هذه الفكرة فيه. كل ما يجري خارج هذا المنزل، عديه غير موجود. اليوم، في سانتا كلارا، يوم كسائر الأيام... كالأمس...

المذكوران ، وإينيس داخلة .

إينيس : كأول أمس، كغد ... مجرد يوم سعيد نظير كل الأيام في هذا البيت . هذا أمر سيدك وأمري ... مفهوم؟

أمارانتا : مفهوم، كلا ! لكن، إن كان أمراً ... (في هيئة من يخرج .) أهناك شيء آخر؟

إينيس : لا شيء . وليستمر كل شيء كما هو . ماذا كنت تصنعين أمس؟

أمارانتا : كنت أطرز الأحرف الأولى من اسم سيدي على صدرتك الجديدة .

إينيس : إذا، فكيها، وابدئي من جديد .

أمارانتا : لماذا؟ اليست حسنة؟

إينيس : على العكس . بالضبط لأنها كذلك . الحسن هو الشيء الوحيد الذي يجب أن يكرر .

أمارانتا : (تخرج وهي ترسم شارة الصليب.) سيدتي العذراء! ليأخذني الشيطان إن كنت أفهم كلمة واحدة اليوم.

إينيس وبدرو

إينيس : لماذا المهاميز؟ أتنوي الخروج؟

بدرو : شوط على الحصان في الجبل كالعادة.

إينيس : لو كنت مكانك لاتخذت الاتجاه المعاكس. أنت كل يوم في الجبل. اليوم يقام في كوئيمبرا، احتفال كبير.

بدرو : لا أحب الاحتفالات.

إينيس : أعلم ذلك. لكن، عليك أن تأمر بإغلاق الأبواب كيلا يدخل أو يخرج أحد ... !

بدرو : أنا لست فضولياً، ولاأريد لأتباعي أن يكونوا كذلك.

إينيس : شكراً يا بدرو.

بدرو: لأي شيء تشكرينني؟

إينيس: لأنك لن تتعلم الكذب في حياتك. ولأنه جميل ما تريد أن تصنعه من أجلي. لكن، ماذا يفيدك إغماض عينيك؟ الليلة الفائتة لم تستطع إطباقهما لحظة واحدة.

بدرو: أكنت تتجسسين علي في نومي؟

إينيس: لا حاجة بي إلى ذلك. كنت أسمع نبض صدغيك كسياط تدق المخدة.

بدرو: ولا أنت كنت غافية. كنت تتظاهرين بالنوم لتهدئتي. زفراتك كانت تخونك. أكنت تصلين؟

إينيس: كنت أعد الدقائق دقيقة دقيقة. لم أكن أعرف ما معنى أن يكون الليل طويلاً. وقد لا أستطيع أن أحيي ليلة أخرى مثلها.

بدرو: أنت أيضاً، تظنين أن الساعة أتت؟

إينيس : كلما جاءت أسرع، كان أفضل. مهما كان الخطر كبيراً، لا يمكن أن يكون أكبر من القلق حين نحس به يقترب ونحن ننتظره بلا حركة.

بدرو : كنت أفضل الهجوم دائماً على الدفاع. من قبلُ، كنت أواجه ذئاباً أو رجالاً. أما الآن، فهي امرأة.

إينيس : أسأل الله أن تكون امرأة فقط. الصراع مع امرأة يمكن أن يقتصر علينا. لكن الأميرة هي إسبانيا.

بدرو : في نظري، لا يوجد إسبانيا أخرى سواك.

إينيس : في صفها إرادة ملك، وخلفها جيشان.

بدرو : لكن، أنا في صفك.

إينيس : في مواجهة والدك؟

بدرو : في مواجهة البرتغال كلها.

إينيس : لا، يا بدرو، هذا لا. شعبك أعظم منك.

بدرو: أنت أيضاً، تذكرينني بواجباتي السامية؟ أولاً، أريد أن أكون رجلاً بكل ما يترتب على الرجال.

إينيس: أمامك عرش بانتظارك.

بدرو: من دونك لن يكون.

إينيس: دونك مهمة كبيرة عليك أن تنجزها.

بدرو: ليس ذنبي أن كلفت بمهمة تفوق قواي.

إينيس: إنهم خصوم ألداء. بأية قوى سنقاتلهم؟

بدرو: بالقوة الوحيدة الحقيقية بحوزتنا: بالحب!

إينيس: أتظن أنها تكفي هذه المرة؟

بدرو: لم نحتج إلى غيرها قطّ. واجتزنا بها ساعات عسيرة جداً. لماذا تتخاذلين اليوم كثيراً؟

إينيس: لا أفكر بأبيك ولا بالأميرة. وإنما أفكر إن كان يوجد شيء آخر يقف ضدنا. شيء يشبه عقاباً من اللّه.

بدرو : عقاب؟ ولِمَ؟

إينيس : لفرط سعادتنا.

بدرو : لست أفهم.

إينيس : اسمعْ، يا بدرو. سأعترف لك بشيء لا تعترف به امرأة أخرى أبداً. لو قلت لي حين وقفت ببابي أول مرة، إنك قادم لليلة واحدة عوضاً عن وعدي بحب دائم، لكنت استسلمت لك ذات الاستسلام ليكون في يدي شيء جميل أتذكره دائماً. لما عدت في اليوم التالي ظننت أنك متصاب. ولما عدت مرة أخرى اعتقدت أنك كريم. وحين لم تعد بحاجة إلى العودة، لأنك لم تذهب، كل ذلك جعلني أرتعد رعدة الخوف السعيد، خوف من يعيش معجزة. كنت سأشكرك طول حياتي لأجل ليلة واحدة. لم تكن ليلة واحدة، ولا مئة ولا ألفا. إنها عشرة أعوام مملوءة بك يوماً فيوما. أيمكننا أن نحصل على سعادة أكبر؟ ... أم أن هناك عقاباً يتربص بنا لأننا كنا سعيدين بإفراط؟

بدرو : أأنت سعيدة هذه اللحظة؟

إينيس : لماذا تسألني ما دمت معك؟

بدرو : لأن سعـادتك غـريبة جـداً، وهي مبللة بدمع عـينيك، وعليها كل أمارات الحزن، كأنك تتذكرينها عوضاً عن أن تعيشيها.

إينيس : أليس هو ما تسمونه في البرتغال حنيناً (Saudade)؟

بدرو : كـلا! «الحنين» هو ألم الفـراق الذي يحس به المـرء بعيداً.

إينيس : أي شيء بعيد في نظرك؟

بدرو : أشجار أُخر، طريقة أخرى في الكلام ... بلد آخر.

إينيس : هذا شطط كبير. عند المرأة، كل ما هو خارج ذراعيها يعد بعيداً.

بدرو : الحنين (Saudade) هو ألم على الخير المفقود. وأنت لم تفقدي شيئاً حتى الآن.

إينيس : ألست أفقد شيئاً منك كل لحظة؟ ما إن تقبلني حتى أحس بالحنين إلى تلك القبلة التي ولت. وحين ترقد ينتابني هذا الحنين إلى عينيك حتى قبل أن تغمض جفنيك.

بدرو : أعجوبة أن يكون لنا الإحساس نفسه، رغم أننا مختلفان جداً. أنت الرقة وأنا القوة. أنت تؤثرين المداعبة وأغنية مهد. وأنا أؤثر الصرخة والحصان.

إينيس : لا نستطيع التنكر لأرضنا. إسبانيا بمثابة أم، والبرتغال محب مدل. وهذا ما يخيفني منك؟

بدرو : القوة؟

إينيس : بل العنف. وهذا ما دعاك إلى الصدام مع والدك. وهنا يكمن مصدر هلاكنا. أفكرت فيما ستقول له؟

بدرو : تعرفين باستفاضة أني أعمل الأشياء أولاً، وأفكر فيها بعد ذلك.

إينيس : أقسم لي، على الأقل، بألا تقول له شيئاً يجرح كرامته.

بدرو: لا تظني أني سأرتمي على قدميه رافعاً راية الاستسلام. حتى الوعل الجريح لا يستسلم دون قتال.

إينيس : عبث محاجتك. كل صورك تستمدها من الصيد والحرب. حتى الحب عندك نوع من الصيد.

بدرو: هو أحبها إلي! صيد أنت فيه الظبية والحقل، وقبلاتي الكلاب التي تسعى عبر طرقات، جسمك العاري كلها.

إينيس : كلا، يا بدرو! دعك الآن من هذه الكلمات المحمومة.

بدرو: في هذه اللحظة، لا أريد غيرها. أريد الكلمات التي لها طعمك فقط.

إينيس : لكن، ماذا جرى لك؟ يداك ترتعشان.

بدرو : قد يكون جبناً. أنا مثل أولئك الجنود الذين يحتاجون إلى جرعة قبل القتال. وأنت خمرتي! حدثيني عنك فقط! ولنسكر ببعضنا!

إينيس : ماذا بوسعي أن أقول لك؟ الآن تعوزني الكلمات حقاً، فلا أجد كلمة واحدة جميلة.

بدرو : كلها جميلة حين تتفوهين بها، حتى حينما تتحدثين عن واجباتي السامية. لكن، قولي لي الآن، إن واجبي الأوحد يدعى إينيس دي كاسترو، خاصة هذا الاسم! إن أحببت أن تقولي أجمل مائة كلمة في الدنيا، كرري اسمك مائة مرة. إينيس دي كاسترو! إينيس دي إسبانيا! إينيس بدرو! إينيس بنت السماء والأرض!

إينيس : أيها المجنون! ... المجنون الحبيب! (يتبادلان القبل طويلاً. يدخل فراغوسو).

المذكوران، فراغوسو ثم الضابط.

فراغوسو : سيدي! ... كبير الضباط يطلب إذناً!

بدرو : هلم يا صاحبي! منذ متى يحتاج أتباعي إلى إذن في دخول بيتي؟ (يدخل الضابط . فراغوسو ينسحب) .

إينيس : أنسيت في سفرك إلى قشتالة أن كأسك ومكانك كانا بانتظارك دائماً؟

الضابط : شكراً لك يا سيدتي! لكن مهمة حزينة أتت بي إلى هنا .

إينيس : من القصر؟

الضابط : أمر من سيدنا الملك .

بدرو : كنا ننتظر ذلك . وكنت على شفا الخروج لأوفر عليك الطريق . أنذهب؟

الضابط : أهكذا فجأة؟

بدرو : أيمكنني أن أفعل شيئاً آخر؟

الضابط : لا أدري. غير أني أعجب إذ أراك طائعاً! بصراحة، كنت أخشى واحداً من انفجارات غضبك فتتمرد.

بدرو : أعليك تقع التبعات؟ ظننتك تعرفني جيداً. أصدقائي أشاطرهم الخير كله. أما الشر فأتجرعه وحدي. نذهب متى شئت.

الضابط : عساك تعرف ماهو الأمر.

بدرو : أتخيله. ولا أحتاج إلى أسئلة.

إينيس : أنا، نعم. هو سؤال واحد. كيف هي الأميرة؟

بدرو : إينيس! ...

إينيس : معذرة. أعلم أنه سؤال تافه للغاية. لكن، في هذه الحالة، من حق المرأة أن تكون تافهة. كيف هي الأميرة؟

الضابط : متكبرة. فهي حفيدة ملوك وقديسين وواسعة الثراء حتى تستطيع السير من نابارا إلى غرناطة نازلة كل ليلة في قلعة من قلاعها.

إينيس : لا أسألك عن نسبها ولا عن ثرائها .

الضابط : كريمة كشيم الأقوياء، صريحة مع الأعداء .

إينيس : لا أسألك عن فضائلها .

الضابط : تحب الكتب . حالمة قليلاً ...

بدرو : لا تتعب نفسك ... إينيس تسألك ببساطة إن كانت جميلة .

الضابط : أنا جندي عجوز، وقاضٍ سيء في أمور الجمال .

إينيس : لكن، في موكبك عشرون ضابطاً شاباً . ماذا كان يقول هؤلاء؟

الضابط : في نظر الشباب، كل ماهو جديد يبدو جميلاً، خاصة إذا جاء من بعيد .

إينيس : دون أنصاف كلمات . أجب بوضوح .

بدرو : لِمَ هذا الاهتمام؟

إينيس : ربما كان ظلماً فادحاً ... هي أميرة قشتالة، ومركيزة بيينا، ودوقة بنيافيل، ومالكة مائة منطقة. في صراعها معي تملك كل ما تحت يدها، وما في أيدي ذويها، وقوى شعبين مجتمعة، ألا يكفيها كل ذلك، فتكون فوق ذلك جميلة ... ؟ أجب.

الضابط : (ينظر إليها للحظة صامتاً، ثم بانفعال هادىء.) نعم ، يا إينيس، هي فوق ذلك ، جميلة. جميلة جداً. ولو لم يكن مغرماً بك لأغرم بها.

إينيس : (صوتها يكاد لا يخرج). شكراً، أيها الضابط. هذا كل ما كنت أريد معرفته.

الضابط : وداعاً، يا سيدتي.

بدرو : وداعاً، يا حبيبتي. (يهم بالخروج. هي لم تستطع كبح صيحة).

إينيس : لا ... (بدرو يقف. ويتبادل نظرة مع الضابط الذي يخرج).

بدرو: لا تودعيني هكذا يا إينيس. دعيني احتفظ لك بصورة قوية في داخلي.

إينيس: معذرة! أحسست بقشعريرة مفاجئة، كأنني أراك تعبر هذا الباب لآخر مرة.

بدرو: أتشكين بي؟

إينيس: بك؟ أبداً. أريد فقط أن أقول لك: إن كانوا أقوى منك، ولم تستطع العودة، فلا تراودك أدنى وخزة ضمير. جعلتني جد سعيدة. ولوعشت مئة عام وحيدة فلن تكفيني لمباركة الأعوام التي قضيناها معاً. شكراً، يا حبي!

بدرو: عروسي الدائمة! (يتبادلان القبل. تسمع بعيداً دقات الطبل). هذه الليلة، ضعي على المائدة الأغطية التي وضعتها أول مرة، وكذلك الخمر نفسه. سيكون كالعودة إلى نقطة البدء.

(يصل راكضاً الأمير خوان الطفل)

إينيس وبدرو وخوان

خوان : انتظر ... انتظر ... خذني معك . يقال وصلت إلى كوئيمبرا ملكة مع موكبها لكي تتزوج . أريد أن أراها .

بدرو : كلا ! لديك شيء أفضل من ذلك تعمله هنا .

خوان : كل الأطفال ذاهبون .

بدرو : لكنك لم تعد طفلاً صغيراً . أتريد أن تصنع لي معروفاً كالرجال؟

خوان : اطلب !

بدرو : أمك خائفة . قف إلى جانبها . (يخرج . إينيس تعانق ابنها راكعة دون أن تتخلى عن النظر نحو الباب . قرع طبول بعيد) .

ستار

المنظر الثالث

في قاعة القصر. واليوم نفسه.

الملك، بدرو والضابط.

الضابط: صافحت الأميرة فتيات موكبها واحدة واحدة، وانسحبت لتستريح راجية ألا تجبر اليوم على تلقي أي تكريم آخر. طبعاً باستثناء واحد.

الملك: قل لها إن هذا الاستثناء الوحيد وصل لتوه. (يخرج الضابط). كنت أنظر إليك مذ عبرت هذا الباب. ولم يسبق لي أن أحسست بك بعيداً عني هذا البعد. كأنك شيء ضاع مني في الطريق.

بدرو: أنت جعلتني أضيع. لعل الأمر يثقل عليك كثيراً.

الملك : لن نناقش الآن أينا المخطىء . خطورة الموقف تكفي لنسيان مشاحناتنا القديمة . أنحاول التفاهم كأب وابن؟

بدرو : ولِمَ لا نتفاهم ببساطة كرجلين؟

الملك : إذاً، فليكن! رجلاً لرجل . حتى الآن، غضضت الطرف عن تجاوزات شبابك . وجدتَ بلاطي في لشبونة ضيقاً فسمحت لك أن تقيم بلاطك في الحقول . شكوت تسلطي، فأطلقت لك الحرية كاملة بالتبذير، وملاحقة الخنازير البرية، وعشيقاتك . إلى متى ستعطي شعبك صورة ابن متمرد، وأمير متعنت؟

بدرو : أنا بحاجة للهواء الطلق . أمقت رجال بلاطك الهامسين في الزوايا، والمنحنين دائماً كأنهم يبحثون عن كرامتهم في السجاد .

الملك : أنا أحتقرهم أيضاً . لكن، أتظن أن المحيطين بك أقل منهم خنوعاً؟

بدرو : رجالي يتكلمون بصوت عال، وينظرون مواجهة، ولا يطأطئون رؤوسهم أبداً.

الملك : لأنهم يعلمون أن هذا ما ترغب فيه. هو شكل آخر من الرياء.

بدرو : يبدو أنك لا تعرفهم.

الملك : أواثق أنت بأنك تعرفهم؟

بدرو : عرفت طباع الرجال من الحيوانات : ابحث عن النبلاء فيهم كجيادي، الأوفياء ككلابي، الشجعان كصقوري.

الملك : أحسنت! أهنئك. ها أنت في أول الشباب وقد عرفت عن الرجال مالم أستطع أن أعرفه عنهم كل حياتي. غير أننا اليوم، لن نتحدث عن الرجال، وإنما عن امرأة.

بدرو : إينيس دِه كاسترو؟

الملك : إينيس دِه كاسترو. آسف حقا أن يكون الحديث عنها. هي، وإن كانت غير شرعية، فإنها تحمل في عروقها دماً قريباً من دمي. وفي قرارة نفسي كنت أحبها دائماً.

بدرو : لك طريقة طريفة في إظهار مشاعرك. المرة الوحيدة التي اهتممت فيها بإينيس كانت من أجل نفيها.

الملك : رجال البلاط كلهم كانوا يطالبون بالتفريق بينكما.

بدرو : ليسوا كلهم. وإنما مستشاروك العجائز، خاصة أزواج مستشاريك العجائز. عجيب كيف تُبغض الخطيئة حيث لا توجد خطيئة!

الملك : في البلاط، الفضيحة أسوأ من الخطيئة ذاتها، وفضيحتك أكثر من شيء آخر.

بدرو : أيخجلك حبنا كثيراً؟

الملك : لم أسمح لرجل من بلاطي أن يكون له خليلة.

ولا أنوي أن أسمح بذلك لابني. أنا نفسي كنت كل حياتي رجل امرأة واحدة.

بدرو: وأنا، أيضاً، أعرفت لي امرأة أخرى؟

الملك: لا تجاهر بذلك كأنه فضيلة.

بدرو: أليس الوفاء فضيلة؟

الملك: بلى! ... لكنه مثل كل فضائلك: كريم على ملذاتك، شجاع في مغامراتك، مخلص لنسائك. ليس لديك فضيلة واحدة، إلا ويقابلها عيب.

بدرو: إن كانت إينيس عيبي، فالذنب ذنبك.

الملك: ذنبي؟

بدرو: أكنت تسمح لي بالزواج بها؟

الملك: آمل ألا تكون خطرت فكرة مشابهة على بالك قط.

بدرو: أسأل ببساطة، أكنت تسمح به؟

الملك : لست أنا من يمنعك . إنه قدرك . تعلم جيداً أنك منذ الطفولة منذور لأميرة إسبانية كما كنت أنا ، كما كان أبي .

بدرو : لكن أيا منكما لم يكن زواجه خلاف إرادته . أما أنا ، فمن أخذ رأيي؟

الملك : لا يمكن أن تكون لك إرادة إلا خير شعبك . زواج أمير لا شأن له بحياته الخاصة .

بدرو : ليست حياتي الخاصة ما أحامي عنه . وإنما حياة إينيس .

الملك : إينيس ! عدنا إلى القصة ذاتها ! أنت مقبل على أخطر لحظة في حياتك . وكلماتك كلها تقتصر على اسم واحد . إينيس ! إينيس ... لكن ، ماذا أعطتك هذه المرأة؟

بدرو : عشر سنوات من السعادة .

الملك : أجل ! أجل . أعرف هذه الأغنية : الحب . كلمة جميلة تليق بالسيدات وشعراء التروبادور . لكنها ضئيلة للغاية في هذا المقام .

بدرو : إن بدا لك الحب رابطة غير كافية، فأية رابطة أخرى يمكن أن تشد رجلاً إلى امرأة؟

الملك : لا توجد رابطة لا يمكن قطعها.

بدرو : أتعلم أن لنا أبناء؟ (الملك يتردد لحظة). أتعلم ذلك؟

الملك : نعم.

بدرو : إن كنت تعلم، ألم تحس بالفضول لمعرفتهم؟

الملك : أعلم أنهم ينشؤون أصحاء أقوياء. خارج هذا المجال لا أحتاج إليهم ولا يحتاجون إليّ.

بدرو : أتنكر دمك؟

الملك : لا يهمني الدم. أنا القانون، وما هو خارج القانون، بعيد عني.

بدرو : كلا! هذا غير ممكن. لك أيضاً أحشاء رجل، مهما رغبت في إخفائها.

الملك : لا تدار الأمور بالأحشاء!

بدرو : لا يمكن إدارتها من دونها أيضاً!

الملك : لا تلح . أولادك لا ينتمون إلي . دعنا من الحديث عنهم .

بدرو : أجبني أولاً عن سؤال واحد وهو الأخير .

الملك : قل .

بدرو : (يقترب . بلهجة حميمة) . حين تتعرى في فراشك وبين أغطيتك الباردة ، ألم تحلم قطّ بدفء حفيد؟

الملك : مرة واحدة فقط . وكانت نذير شؤم لا أريد تذكره .

بدرو : أكان الحلم سيئاً جداً؟

الملك : كان طفلاً يصارع أسداً . كان الطفل أعزل ، ولا سلاح له إلا طهره . وبنظرة واحدة جعل الأسد يتمرغ في التراب .

بدرو : لم أفهم المغزى .

الملك : أنا فهمته . الحكم وظيفة لا تقبل الضعف . أنا في هذه السن قاس على الرجال ، عجوز في نظر النساء . لكن الخطر الوحيد الذي يهددني قد يكون طفلاً .

لذلك، أدعو الله منذ ذلك الحلم أن يجنبني السقوط في الإغـراء. أطلب فـقط ألا أسـقط فـي الشـفـقـة. أفهمت الآن؟

بدرو: الآن، فهمت.

الملك: إذاً، بحـيـاتك يا بدرو، لا ترغم الأسـد الـعـجـوز على قتال بريء. أبعد أبناءك عني.

بدرو: لا بأس! أنت لن تعرفهم. شكراً، على كل حال. منذ زمن بعيد لم أسمع منك كلمة حارة. (يسود صمت طويل. صـوت الأب الـذي كـان اقـتـرب للحظة من دفء وشباب بدرو، عاد للابتعاد مرة أخرى).

الملك: أفكرت ماذا ستصنع بإينيس؟

بدرو: ولأي شيء؟ افتـرض أنــك مـا دعـوتني إلا لتـملي علي ما فكرت فيه أنت.

الملك: أولاً، أزل هذا الوضع من جذوره. يجب على إينيس أن تبدأ حياة جديدة في أية قلعة من قلاعي. لكن، بعــيــداً عن هنا. والأفـضل أن تكون عـلى حــدود غاليسيا.

بدرو : أهو نفي آخر أم سجن أنيق؟

الملك : بل ركن هادىء، مع أعطياتها وأراضيها وحاشيتها. ستقيم فيه بكل تكريم كسيدة أولى مع أبنائها والخدم الذين تختارهم بنفسها. وإذا كانت طموحة فستحصل على لقب أيضاً.

بدرو : رائع ! كهدية، لا يمكنها أن تطلب المزيد. لكنني أخشى ألا تقبل هدايا من أي رجل آخر غيري.

الملك : أنا لم أقل هدية. أفضل أن أسمي الأشياء بأسمائها.

بدرو : ثمن؟ أسوأ. أنا أعرف النساء خيراً منك. عند المساومة، أقسم لك، لا أحد يفهمهن أبداً. مقابل قليل من الحب يطلبن ثروة؛ مقابل الحب كله، لا يرضيهن شيء.

الملك : هذا يعود لك. أتظن أن إينيس ستتردد بتقديم أية تضحية تطلبها منها؟

بدرو : تذهب إلى الموت وعيناها مغمضتان.

الملك : إذاً... ؟

بدرو : لهذا السبب لا أطلب ذلك منها . إزاءنا نحن الاثنين لك ما تشاء . إزاءها وحدها ، لا شيء .

الملك : أإلى هذا المدى قيدت يديك وقدميك؟

بدرو : بل أكثر من ذلك . ربطت أذني وعيني ، وحبست نبضي وأنفاسي .

الملك : اخرس ! يخجلني أن أسمع منك لغة مخدع لا تليق برجل حقيقي .

بدرو : لم يكن رأيك بي هكذا حين كنا نقاتل معاً . كم رأيتني أقتحم الصفوف متوغلاً دون نُكوصٍ على عقبي أبداً !

الملك : هو ذاك الابن ما أريده هنا . كنت يومئذ صورة جديرة بأن تنقش على شعار . وانظر ما أنت عليه الآن : قلب مطرز على قميص امرأة .

بدرو : لا تشتم من لا يقدر على الدفاع .

الملك : دافع عن نفسك . إني آمرك ! أطلق الرجل الحقيقي القابع داخلك مرة واحدة .

بدرو : بأغلى ما تحب، لننه الأمر.

الملك : لن أنهيه على هذا الوضع . الأميرة ستصل عما قريب . واحتاج منك إلى جواب .

بدرو : ليس لدي جواب عن كل أسئلتك سوى : إينيس .

الملك : أهذه كلمتك الأخيرة؟

بدرو : الأخيرة والوحيدة . انزع الكلمات مني كلها ؛ فإذا ما بقيت واحدة منها معلقة في حلقي فستظل تردد : إينيس ، إينيس ، إينيس .

الملك : عشيقة عليك أن تخفيها كأنها العار . ألم تستطع العثور على عذر أكثر تشريفاً؟

بدرو : (مشارا .) أعذار؟ جسمي الفتي يكره هذه الكلمة . أعذار يحتاج إليها الباعة ، وصغار رجال القانون ؛ أعذار للكسالى والجبناء ؛ أعذار لتدمير امرأة . حتى إذا لم توجد أعذار ، فسوف يبحث عنها . إنها سلاح العجائز .

الملك : يكفي يا بدرو .

بدرو : لا يكفي . إن أحببت أن تعرفني معرفة كاملة ينبغي لك أن تسمع المزيد .

الملك : اسكت ، أقول لك . كل ما يمكننا قوله ، رجلاً لرجل ، انتهى . والآن ملكك هو الذي يخاطبك .

بدرو : (يسيطر على نفسه ، وينكمش) . معذرة .

الملك : إينيس ستباشر رحيلها فوراً . مكانك منذ الآن ، إلى جانب الأميرة . من يعترض هذا الزواج هو عدو البرتغال .

بدرو : أبي ...

الملك : إنها أوامر قاطعة . ما بيننا قيل كل شيء . (يدخل الضابط) .

الضابط : سيدي ، سمو أميرة قشتالة ! (تدخل الأميرة مع مرافقتيها ووصيفاها) .

الملك : تقدمي يا بنيتي . أمير بدرو : يشرفني أن أقدمك إلى زوجك الأميرة كونستانثا مانويل . أسأل اللّه أن تعرف كيف تكون جديراً بها .

بدرو: سيدتي ... (يقبل يدها راكعاً. يخرج الملك يتبعه الضابط).

الأميرة، بدرو، مرافقتان، وصفاء

الأميرة: ما كنت بحاجة إلى أي تقديم. خلال سفري حُدِّثتُ عنك طويلاً، حتى صرت قادرة على التعرف عليك من نظرة واحدة.

بدرو: وأنا أيضاً، أسديت لي نصيحة للتعرف عليك: بين مائة امرأة، ابحث عن أنبلهن، وبين مائة نبيلة، أبحث عن أجملهن.

الأميرة: شكراً. أعلم أن الغزل عندكم لغة طبيعية. لكنني في هذه الحالة، أرى أن نبدأ بالمقلوب، كما أفعل بحبات الكرز.

بدرو: أي كرز؟

الأميرة: هوس رافقني منذ طفولتي: آكل الحبات المرة أولاً، ثم الحبات الحلوة في الختام.

بدرو: هذه أول محادثة بيننا. لماذا تشتبهين بوجود كلمات مرة بالضرورة؟

الأميرة : أرى أني سأسمعها حتماً ذات يوم. وأفضلها بأسرع ما يمكن. والآن خير من أي وقت.

بدرو : أنت شجاعة.

الأميرة : أنا صريحة. وهذا ما آمله منك.

بدرو : قبلت. وأنا أفضل الأمور هكذا أيضاً. لكن، ما سأقوله لك جد حميم. أمن الضروري أن تسمعنا مرافقتاك.

الأميرة : هنا، لا. لكنهما يعرفان عادات القصر، ويمكنهما أن يستمعا من وراء الأبواب على أحسن وجه. إلبيرا! ليونور! (تخرج السيدتان والخدم).

الأميرة وبدرو

بدرو : ما كنت أرغب في جرح كبريائك بأن أكون آخر من حضر.

الأميرة : لا قيمة لذلك. رسمياً، تلقيت كل الأعذار الممكنة. كنت بعيداً في رحلة صيد.

بدرو : لا، لم أكن في رحلة صيد.

الأميرة: ضعت خلال الضباب وفي الجبال.

بدرو: ولا هذا أيضاً. أعرف جبالي شبراً شبراً.

الأميرة: إذاً، لا أدري. لعلها سقطة عن حصان... أو جرح.

بدرو: لا جرح ولا حصان. إن أخلفت بموعدي مع امرأة، فلا توجد إلا قوة واحدة تمنعني.

الأميرة: امرأة أخرى؟

بدرو: أتعلمين ذلك؟

الأميرة: لا! وإنما تذكرت أغنية طلاب: لها عينا ن من زمرد، وبيت مخفي على ضفاف النهر. لكنني واثقة بأن الأغنية لا يمكن أن تشير إليك.

بدرو: لماذا أنت واثقة جداً؟

الأميرة: لأنها تحكي قصة آثم كبير. فكيف أصدق ذلك عن أمير بين أجداده سانتا إيزابيلا دي أراغون؛ وسان هومبرتودي سابويا؛ وسانتا إيزابيلا المجرية؟

بدرو: لذلك، صدقي، يا سيدتي. عائلة أنجبت هذا الكمّ من القديسين، لها الحق بآثم مسكين.

الأميرة: يعني أنك لست مستعداً لإنكار شيء: لا الفضيحة ولا التمرد ولا النساء؟

بدرو: أنكر تعدد النساء. إنها امرأة واحدة.

الأميرة: لم يدر في خلدي أن أسألك عنها. سأكتفي بكلمتك بأن ما بينكما انقطع نهائياً.

بدرو: معذرة. أعتقد أننا لم نفهم بعضنا جيداً. ربما كان يجب أن أقول: حب، عوضاً عن امرأة.

الأميرة: أليس الشيء ذاته؟

بدرو: تقريباً، لا. المرأة نتملكها، لكن الحب يتملكنا.

الأميرة: أتريد أن تقول لي إنك جعلتني آتي إلى هنا دون أن تقطع معها؟

بدرو: لم أستطع تجنيبك ذلك. حين علمت برحيلك كان الأوان قد فات.

الأميرة: وبعد ذلك؟ ... والآن؟ أتراني ضئيلة حتى تتمكّن من الذهاب كل يوم وتتركني حتى اليوم التالي.

بدرو: لا اليوم التالي، ولا أبداً.

الأميرة: أبداً! ... أمن أجل هذا جلبتني إلى بلدك؟ ... ألكي يُبتذل اسمي في الطرقات وسط سخرية الأغاني، وهزء الطلاب؟ شكراً لك يا بدرو. هدية عرس ما كنت أنتظرها.

بدرو: يؤلمني، والله، إن سببت لك أذى. لكن الأفضل أن تعرفي ذلك منذ الآن. مهما يجر، فلا توجد قوة بشرية قادرة على إبعادي عن إينيس.

الأميرة: (صامتة. صوتها مختنق وهي تنظر إلى يديها). عجيب ... عجيب!

بدرو: وأنت أيضاً، تظنين هذه اللغة غير جديرة برجل؟

الأميرة: ليس أنت ما أعجب منه. وإنما أعجب من نفسي. لم أنم وأنا أتخيل ماذا يمكن أن يجري لي حين تأتي هذه اللحظة. توقعت كل شيء ما عدا هذا. كنت أتخيل يدي متيبستين من الغضب، وكبريائي مصفوعة، وركبتي تصارعان كيلا تنثنيا. تصورت إمكانية فضيحة وألم. لكن، كلا! لا فضيحة ولا كبرياء. نبضي مازال قوياً. هو استغراب عجيب ملآن بالأسئلة.

بدرو: ما هي؟

الأميرة: إنهما كفتا ميزان. في واحدة منهما ملكك وشعبك. وفي الأخرى امرأة. أتكون كفة المرأة الراجحة؟

بدرو: لو أحببت ذات مرة لما سألت.

الأميرة: لكن، أية امرأة فائقة هذه؟

بدرو: لا حاجة لأي شيء فائق. خير المعجزات ما لا يحتاج إلى تفسير.

الأميرة: أهي نبيلة؟

بدرو: أدنى منك.

الأميرة: جميلة؟

بدرو: الأغاني تتحدث عن عنق كعنق (البلشون)، وعينين كالزمرد.

الأميرة: اسمها؟

بدرو: إينيس دِه كاسترو.

الأميرة: إسبانية؟

بدرو: غاليسية. وهي أجمل طريقة لتصبح برتغالية.

الأميرة: لكنها لا يمكن أن تكون امرأة كباقي النساء! يجب أن يكون فيها سر ما!

بدرو: سر واحد. يسرها أن تغزل مع فلاحيها؛ تبكي لوحدها، لكنها تضحك مع الآخرين! تقطف أعنابها وتعجن خبزها، وفوق ذلك يفيض عنها كل يوم، أربع وعشرون ساعة كيما تحب.

الأميرة: لا أفهم هذا.

بدرو: ما يزال الوقت مبكراً. والآن التهمنا كرزاتنا المرة، أيمكنني أن أطلب منك شيئاً قبل أن أنسحب؟

الأميرة: قل!

بدرو: أنا واثق بأننا صرنا صديقين صالحين. لكن الحياة لن تدعنا هكذا. عديني على الأقل أننا سنكون عدوين صالحين.

الأميرة: نعم أعدك بذلك. وبملء روحي. (تمد له يدها فيقبلها.)

بدرو: شكراً، يا كونستانثا مانويل. (يخرج. تتمشى الأميرة مضطربة رافعة يدها إلى عقدها الذي يبدو أنه يخنقها. تدخل المرافقتان.)

الأميرة، إلبيرا وليونور

الأميرة: أفترض أنكما سمعتما.

إلبيرا: ليتنا لم نضطر إلى الاستماع.

الأميرة: إذاً، لا حاجة للكلمات! عدوان صالحان، لكنهما في صراع منذ هذه اللحظة. متى موعد نزهة الصيد التي عرضها علينا الملك؟

ليونور: غداً صباحاً، في جبل إسبرانسا. ستكون مكرسة لصيد الخنزير البري.

الأميرة: ستظهرين أنك خير فارساتي؛ فاسمعي جيداً. عند عبور المونديغو غداً، اجعلي حصانك يشب للفت الانتباه، ثم ادفعي به إلى الجري، كأنما أفلت لجامه؛ واطلبي النجدة لكي يلحق بك الناس جميعاً. فرّي بهم إلى أبعد ما يمكن متوغلة في الجبل.

ليونور: أستبقين وحيدة وسط الحقل؟

الأميرة: بانتظاري صيد أشد إغراء: (بلشونة) بيضاء على ضفة النهر.

إلبيرا: أهـي! (ترسـم شارة الصليـب بسـرعـة). أسـأل اللّه ألا يصـيبنا مكروه! (يدق بعـيـداً أحـد الأجـراس. يجيبه جرس آخر أقرب. ثم ثالث فرابع ...)

الأميرة: من يذكر المكروه في يوم كهـذا اليـوم؟ ألا تسـمـعين هذه الأجـراس التي تدق تحـيّـة لي؟ وهذه النوافـذ الملآنة بالأعلام؟ والبرتقال المزهر؟ والمراكب في أعلى البحار؟ كل ما في البرتغال يرفل في أحلى الحلل احتفاءً بزفافي. وماذا أطلب أكثرمن ذلك؟ (يتحطّم صوتها وتنزع العقد). خذي ... ارمي بهذا العقد. إنه يخنقني!

ليونور: (تلتقطه من الأرض). لكنه، يا سيدتي ... زمـرّدات غاية في الجمال!

الأميرة: لا أريد أن أراها بعد اليوم. إنها تشبه عيني امرأة. (تتجه فجأة نحو المخرج. كل أجراس كوئيمبرا أخذت تدق).

ستار

الفصل الثاني

صباح مشمس في الدارة (١)

فراغوسو يطل على المرقب. تُسمع أبواق صيد بعيدة. يدخل بدرو بملابس الصيد، وقد أحكم وضع الصدرة الجلدية، يطوّقها بعدئذ بعصابة علّق بها قراب البوق، وبنطاق مرصّع بالفضّة، شُدّت إليه الحِمالة، وسكين يقدّمها له فراغوسو.

بدرو: أخيراً ! ... ساعة طيّبة لبدء الصيد. ارتفعت الشمس وجفّفت الأثر.

فراغوسو: في هذه اللحظة يدخلن الحَرَجَ. (يناوله

---

(١) أخص من الدار، حسب مختار الصحاح. وكلمة PaZO تعني في غاليسيا - إحدى مقاطعات إسبانيا - بيتاً قديماً شيّده أحد رؤوساء الأسر النبيلة في الريف لاستعمال خاص، دون أن يبلغ فيكون قصراً. (المترجم).

الحـزام.)لديك مـزيد من الوقـت لتـدركـهن عند الجسر.

بدرو: أيتجهن نحو الجسر؟

فراغوسو: إلى معبر النهر.

بدرو: كـان عليّ أن أتخيّل ذلك. الجيـاد والنسـاء يسـحـرهن عبـور الأنهار. الأولى لتشـرب، وهنّ ليتـرائين في الماء.

فراغوسو: أيبلغ بهن الغرور هذا المبلغ؟

بدرو: أتخيّل ماذا يلبسن دون أن أراهن. أفيهنّ واحـدة تلبس الأزرق والأصفر؟

فراغوسو: ولِمَ لا؟

بدرو: في الحقـول؟ لـونان ينسـجمـان أسوأ انسـجـام واللون الأخضر.

فراغوسو: سيحولّنَ الجبل إلى حفل راقص. فيض من الجياد وصـدراتُ المـخـمل. وكـلهن، كـمـا يُفـتـرض، مسلحّات بالأقواس. لو كان الأمر بيدي، لمنعتُ هذه الأسلحة التي تقتل بسهولة بالغة من بعيد.

بدرو : أوافقك الرأي يافراغوسو . فيوم يفقد الحيوان وسائل دفاعه ولا يتعرض المرء للخطر، ليس من حقنا أن نسمي الصيد هواية .

فراغوسو : أسأل اللّه ألا نرى ذلك . لكن بعضهم يفكر في أن يستخدم في الصيد، هذه البودرة الجبانه التي اختُرِعت لاستعمالها في الحرب .

بدرو : البارود؟ أبداً . صيّاد أصيل لا يثيره شيء كسماع هرير الكلاب وهي تتقفّى الأثر، وكإحساسه بإقبال الخنزير البرّي من الدغل كالغضب شاهراً نابيه ... في هذه اللحظة الفريدة يقف بانتظاره بثبات ممسكاً الحربة بيده اليمنى والسكين بيده اليسرى . (نباح قريب .) هييء سرب الضراء، واجعلها تلمح أثراً منه حتى تأخذ بعضٍ حبالها . (يخرج فراغوسو . بدرو يضع قبعة الصياد على رأسه عند دخول أمارانتا بجلبة كبيرة من الإشارات والنحيب) .

بدرو ، أمارانتا ، ثم إينيس

أمارانتا : أقسم بالأناجيل الأربعة، لا أقبل! أأقول، الأناجيل الأربعة؟ أقسم بالرسل الاثني عشر، لا أقبل! أأقول

الرسل الأثني عشر؟ أقسم بالعذارى الإحدى عشرة ألف. لا أرضى، لا، لا! ليتني فقدت عيني، ولا رأيت شيئاً مماثلاً!

بدرو: اهدئي يا أمارانتا! في السماء، لا تهم الأعداد. أتشكين شيئاً؟

أمارانتا: آي، يا سيدي، ليتها كانت شكوى فقط!

بدرو: أتستائين من شيء؟

أمارانتا: آي، يا سيدي. ليته كان استياء فقط!

بدرو: أرجو أن لا تكون كارثة!

أمارانتا: أسوأ من كل ذلك. هذا الطفل، هذا الطفل الذي كان حياتي كلها... والآن، فجأة...

بدرو: خوان! أحدث مكروه للطفل؟

أمارانتا: مكروه للطفل؟ عجباً يا سيدي! أيحدث مكروه للطفل وأبقى أنا حية؟

بدرو: حادث ؟... جرح ؟

أمارانتا : كيف يكون جرحاً ؟ أيجرح ملاكي وأظل هنا هادئة؟

بدرو : إذاً، ماذا؟ قوليها مرة لعينة واحدة. ماذا جرى لك مع الطفل؟

أمارانتا : أصبح لا يحبني، يا سيدي. والبرهان عرفته في هذه اللحظة.

بدرو : خفّفت عنا! كل هذا الرعد، ولا مطر! (تدخل إينيس تحملَ صندوقاً صغيراً من العاج).

أمارانتا : أيبدو لك قليلاً؟ أنا أبذل حياتي في سبيله، وأراه يبعدني هكذا ؟ صار لا يحبني. لا يحبّني !

إينيس : من لا يحبك في هذا البيت؟

أمارانتا : الطفل، يا سيدتي! يكفي أني لا أنهاه عن شيء حتى يعمله متلذذاً. أخاف عليه من الجياد ؟ إذاً، هو يمتطيها جرياً. الريح تزعزع الشجر ؟ إذاً، هو يتسلق أعلاها. لا تعبر النهر. يعبره والماء يغمره حتى رأسه.

إينيس : هو في سن، كل خطر إغراء له.

أمارانتا : لا ليس الخطر. يسعده أن يراني أتألم. وكلما كانت دموعي أغزر، شعر بفرح أكبر. أين رأيت حالة كهذه؟ لا يرمى بخرقة هكذا! ويرضيه أن يجعل النساء يبكين كأنه رجل.

بدرو : الخلاصة : أيمكننا أن نعرف أية فظاظة جديدة ارتكبها اليوم؟

أمارانتا : طردني من غرفته، وصفق الباب في وجهي.

إينيس : مستحيل. ولماذا؟

أمارانتا : جئت لأجرده من ثيابه كي أغسله، فقاوم كجرو الذئب. في البداية، ظننته يلعب، لكنه سمرني فجأة بصوت لم أسمع مثله قط : « كفى نساء! منذ اليوم سأغتسل وحدي ».

بدرو : أهذا كل شيء؟ إذاً، نامي مطمئنة. ذلك لا يعني أنه لا يحبك. ما جرى لهذا الصبي أنه قدكبُرَ.

إينيس : هيا، هيا! ارجعي إليه. واحذرك: لا تدخلي عليه حتى تدقي الباب أولاً.

أمارانتا : سأذهب . لأن سيدتي تأمرني . لكني انتهيت . وعما قليل ستنتهين أنت أيضاً . وذات يوم ستنتبهين وترين نساء أخريات قد أخذن ينتهين . لماذا يكبرون يا إلهي ، لماذا ؟

إينيس وبدرو

إينيس : أمارانتا على حق . فمنذ الآن ، كل خطوة يخطوها يبتعد فيها عني .

بدرو : يا لعقد النساء ! الخوف على فقد ما في أيديكن ، يجعلكن لا تنعمن بالهدوء .

إينيس : يقال : لا شمس دون ظل .

بدرو : أتلبسين وجه الحزن الآن ؟ عند دخولك منذ قليل ، كانت عيناك تشعان فرحاً .

إينيس : كنت تلقيت لتوي هدية منك .

بدرو : أأهديت إليك اليوم شيئاً ؟

إينيس : بل منذ زمن بعيد . ظننتها مفقودة ، وحين عثرت عليها أثناء تقليب هذا الصندوق ، كانت مفاجأة سعيدة ، وكأنما تهديها إلي مرة ثانية .

بدرو: أكل هذه القيمة لها ؟

إينيس : لا يمكن تقديرها بثمن .

بدرو: أهي ذهب ؟

إينيس : أغلى منه .

بدرو: جوهرة ؟

إينيس : أغلى . هي ذكرى لها تاريخ . أتحزر ؟

بدرو: بقليل من الجهد سأعرف . الخلاصة : بيننا ثلاثة تواريخ لا تنسى .

إينيس : ثلاثة فقط ؟

بدرو: الأول والأخير، وتواريخ أخرى .

إينيس : (تبتسم . يكاد الحوار يكون لعبة فيها لمسة خفيفة من التأثر) . إذاً، ليس الأول .

بدرو: ولا الأخير ؟

إينيس : ولا هو أيضاً .

بدرو : إذاً، صار اللغز أصعب . التواريخ الأخرى كثيرة جداً .

إينيس : تاريخ بارز بينها .

بدرو : أهنا ؟

إينيس : بعيداً .

بدرو : قمح مكدّس ، على طريق إيبورا ؟

إينيس : خير منه .

بدرو : قارب ؟ نزهة ليلية في خليج الدّوورو ؟

إينيس : أحسنْ . فكّر بأجمل يوم في حياتنا .

بدرو : كان لنا منها الكثير .

إينيس : يوم لا كالأيام .

بدرو : ساعديني قليلاً . شمالاً أم جنوباً ؟

إينيس : شمالاً وشتاءً. مدينة مغطّاة كلها بالثلج، وقلت أنت: «ارتديتِ البياض لأجلك».

بدرو : لا تزيدي: منذ سبع سنوات في براغانثا. الأول من كانون الثاني.

إينيس : أخيراً!

بدرو : أتريدين أن أعيد عليك القسم؟

إينيس : لا حاجة لذلك. وشكراً يا حبي. (يتعانقان باسمين).

بدرو : والهدية؟

إينيس : (تُخرج من الصندوق الصغير رَقّاً). هذه الأغنية المكتوبة بيدك وخطك.

بدرو : أغنيتي! أنظمت أشعاراً ذات مرة؟

إينيس : وجدنا مطلعها؛ ربما، كان كتبها جدك الملك ديونيس. وهو ما يسمونه في بلدي غاليسيا «أغنية صداقة». لذلك أكملتها أنت. أتتذكرها الآن؟

بدرو : إذا بدأت بها، أتذكر. (تتناولها من خصرها. يتجاوبان موسيقياً والعينان في العينين).

إينيس : عيناي َتنطلقان مع البحر

باحثتين عن البرتغال .

بدرو : عيناكِ تنطلقان مع النهر ...

إينيس : باحثتين عن صديقي .

بدرو : عيناكِ تنطلقان مع الهواء ...

إينيس : باحثتين عن حبيبي .

بدرو : إلى أين ، عيناك تتطلّعان ؟

إينيس : تتطلْعان إلى عيني عريسي .

(يُسمع بوق قريباً جداً . إحضار . نباح وصوت فراغوسو الذي يصل راكضاً) .

المذكوران وفراغوسو

فراغوسو : سيدي ! سيدي ! ... (يدخل) . إحدى مرافقات الأميرة أفلت زمام حصانها ؛ وهو ينطلق كالشرارة نحو الهاوية !

بدرو : والصيادون ؟

فراغوسو : يجـرون خلفـه جـميـعـاً وسط هـرج من الصـياح والكلاب . لن ينالوا شيئاً إلا إثارة الخوف لديه .

بدرو : مغفلون ! يجب قطع الطريق عليه كيفما كان . اتجه إلى كروث دي لابيدرا . وأنا إلى تريس كاستانيوس . فوراً ! (يخرجان) .

إينيس : بدرو ! ... بدرو ! ... (تتجه إلى النافذة . ومن هناك تلاحقهما بنظرها . أبواق ونباح كلاب مبتعدة . صمت . لما تلاشت آخر ضوضاء تنحت إينيس عن المرقب . ترسم شارة الصليب ثلاث مرات ببطء) .
سان كريستوبالون ، شفيع المسافرين : احفظه لي !
سان هومبرتو شفيع الصيادين ، احفظه لي !
سانتاماريا المجيدة ، يا أملنا ، احفظيه لي ! (تطل على العتبة الداخلية وتنادي .) أمارانتا !

صوت أمارانتا : (من الداخل) . سيدتي ؟

إينيس : انتبهي إلى الأطفال . لا يخرج أحد منهم إلى أن يعود الصيادون .

صوت : هذا ما سأفعله !

إينيس : (تلتقط الرق الذي سقط منها حين اندفعت نحو النافذة. تنزلق نظرتها عليه وهي تتمتم). براغانثا ... الأول من كانون الثاني. (ستحفظه في الصندوق الصغير مع ذكريات أخر تداعبها متفكرة. في فراغ المخرج تظهر الأميرة بلباس الفرسان. صمت طويل. تنظر إليها بعينين ثابتتين. إينيس تلتفت فجأة وكأنها أحست في ظهرها برودة نظرة الغريبة).

إينيس والأميرة

إينيس : مَن هنا ؟ (تتقدم الأميرة خطوات معدودات دون أن تجيب). من أنت ؟

الأميرة : إينيس دي كاسترو؟

إينيس : بأي حق تقتحمين بيتي ؟

الأميرة : بيتك ؟ معذرة ! لم أعلم جيداً. لكن، قيل لي إنه بيت الأمير بدرو، ولذلك رأيت من حقي دخوله.

إينيس : آه ! فهمت ... أأنت كونستانثا مانويل ؟

الأميرة : مرافقاتي ينادينني بلقبي ، ومن عادتهن أن يحنين ركبهن عند تحيتي . لا الح ، لكنني أشكر لهن ذلك .

إينيس : (بانحناءة باردة) . حفظ اللّه الأميرة

الأميرة : وكان في عونك أيضاً يا إينيس . (تخطو خطوات دون أن تنظر إليها ، وهي تتأمل البيت) . أعجبني البيت والموقع . أهذا ما يسمى ، دارة سانتا كلارا ؟

إينيس : هي نفسها .

الأميرة : إذا لم تخني ذاكرتي ، أسستها الملكة سانتا ليقيم فيها الأمراء مع زوجاتهم . أليس كذلك ؟

إينيس : لا أدري إن كانت الوصية تنص على زوجاتهم ، أم نسائهم ببساطة .

الأميرة : أنا أعرف . تنص حرفياً : « زوجاتهم الشرعيات » .

إينيس : يبدو أنك درست تاريخ العائلة جيداً.

الأميرة: عنيت به كثيراً، لأنه سيصبح تاريخي أيضاً. (تقترب منها وتحدق بها. إينيس تحافظ على ثبات نظرتها). وأنت ... ؟ أعيناك كبيرتان حقاً، أم أنها المفاجأة ؟

إينيس : المفاجأة إلى حد ما. كنت واثقة بأن هذا اللقاء لا بد من أن يحدث. غير أني لم أكن أتخيل متى وكيف.

الأميرة: إذاً ، ماذا يدهشك ؟

إينيس : الوقت الذي اخترته. أتعلمين أن إحدى وصيفاتك على وشك أن تهوي عن حصانها في المنحدر، هذه اللحظة ؟

الأميرة: لا خطر في ذلك. ليونور تعرف كيف تسيطر على الحصان خيراً من كل الرجال الذين يسعون خلفها. المهم، أنهم تركونا وحيدتين.

إينيس : بشكل ما، هي مؤامرة ؟

الأميرة: مؤامرة بريئة. لكنها مؤكدة. أنت تعلمين، كي أخطو هذه الخطوة، ينبغي لي أن أجد مسوّغات قوية جداً.

إينيس: لا حاجة لمسوّغات كبيرة. مسوّغ واحد يكفي.

الأميرة: بأيها تفكرين، بصراحة؟

إينيس: بصراحة؟ بالغيرة.

الأميرة: غيرة من أي شيء؟ لم أعرف الحب قطّ؛ وبالأمس تعرفت على بدرو.

إينيس: أهي الكرامة المجروحة؟

الأميرة: هذا أول ما خطر على بالي أيضاً. لكن، ليس كذلك. وها أنا أكتشف فجأة، أن ميلي إلى الفضول يفوق ميولي الأخرى كلها.

إينيس: أهو الفضول ببساطة؟

الأميرة: هي عادة سيئة اكتسبتها في البرتغال خلال هذه الأيام الأربعة الأخيرة.

إينيس : أما كنت تعرفين كل شيء قبل أن تأتي ؟

الأميرة : كنت أرى الوقائع . لكني ما كنت أفهمها . كلما أمعنت التفكير في الأمر ، لم أستطع أن أفهم لماذا يلعب امرؤ هذه اللعبة خلاف كل منطق . قيل لي إن السر فيك . ولم أكن أستطيع النوم دون أن أعرفك .

إينيس : لا أعتقد أن أكون بهذه الأهمية .

الأميرة : لما وصلت هذا الباب ، ما كنت أعرف أية معجزة سألقاها : أهو إلهام ؟ أم كشف ؟ لا أدري . وإذ عرفتك الآن ، ألا يجرحك لو قلت لك إنك خيبت أملي ؟

إينيس : آسفة لذلك .

الأميرة : عيناك كبيرتان مدهشتان . لكن مملكة هي أكبر منهما . أنت جميلة ، لكنك أقل جمالاً من السلطة والطموح والمجد . ما هو سحرك ، إذاً ؟

إينيس : لا سحر فيَّ. في الحب، ليس المهم كيف تكونين. وإنما كيف ينظر إليك الناس.

الأميرة : لا أدري بأية عدستين مبهرتين كان ينظر إليك بدرو. لكني رأيت ملكات وبطلات وقديسات؛ وإني أراك جد تافهة! مجرد امرأة لا تصبو إلى مجد آخر سوى أن تكون امرأة.

إينيس : شكراً، أيتها الأميرة. لا يمكنك أن تقولي لي شيئاً خيراً مما قلت.

الأميرة : في نظرك، ربما. لكن، أتظنين أن بدرو يكفيه ذلك؟

إينيس : إلى الآن، لم يحتج بدرو إلى شيءآخر.

الأميرة : بدرو ! ألا تبدو لك ثقة مفرطة أن تدعيه أمامي باسمه المجرد؟

إينيس : معذرة ! هي عادة سيئة تعودتها في البرتغال هذه الأعوام العشرة الأخيرة.

الأميرة : حذار، يا إينيس ! بإمكاني الصفح عن أشياء كثيرة، لكن الوقاحة لا أصفح عنها.

إينيس : أهو ذنبي، إن أجبت باللهجة التي أخاطب بها ؟

الأميرة: حذار، أقول لك ! انظري، جئت هنا وعندي استعداد لأكون شفوقة. لا تجعليني أندم.

إينيس : من طلب منك الشفقة ؟ نحن امرأتان نتنازع رجلاً واحداً. لنتصارع أولاً، ولنر بعدئذ من منا يتاح لها الترف بأن تكون شفوقة.

الأميرة: أصارعك ؟ كلا، يا إينيس. لا شيء يغريني كالتحدي. لكني لو قبلت به في هذه الحالة، لكان جبناً مني. لديّ قدر كبير من الأسلحة، وأنت لا تملكين سلاحاً واحداً.

إينيس : إذاً، لماذا أتيت ؟

الأميرة: لأسدي لك نصيحة ثمينة. أنت تطئين أرضاً هي أخطر مما تظنين. اخرجي من هذا البيت، هذا اليوم، أو اختبئي بعيداً، حفاظاً على مصلحتك ومصلحة بدرو.

إينيس : لا شك أنها نصيحة حكيمة. لكن الحكمة والحب رفيقان متنافران.

الأميرة : إن لم تكن النصيحة كافية ، أستطيع أن أحولها إلى أمر .

إينيس : وإذا لم أطع أمرك ؟

الأميرة : أتوسل إليك . لا تدفعيني إلى حيث لا أريد أن أصل . أتعلمين أنني أستطيع نفيك إلى قشتالة ؟

إينيس : نعم .

الأميرة : ألا يخيفك هذا ؟

إينيس : لا ! سواء أكنت منفية أم أسيرة أم ميتة ، لن تستطيعي انتزاعه مني . ماذا تكسبين بإخراجي من البرتغال ، إن لم تستطيعي إخراجي من بدرو ؟ ماذا يهم إن نزعت حياتي مني ، إذا كنت لا تستطعين أن تنزعيني من حياته ؟

الأميرة : أو لم يخطر ببالك أني قد ألحق بك أذى أعظم من ذلك ؟

إينيس : أسوأ من تفريقنا عن بعضنا ؟

الأميرة : هو عندك أسوأ من الموت ذاته. إنه إحدى تلك العذابات التي لا يعرفها أحد إلا نحن النساء. عذاب ليس فيه جراح ولا صراخ؛ لكنه ينهش بك يوماً فيوماً كقطرة من الماء. ألا تتخيلينه ؟

إينيس : بصراحة ، لا .

الأميرة : هو سهل جداً. صكّ زواجي ببدرو وقعه بلاطا البرتغال وقشتالة. يكفي أن أطالب به حتى يتحول إلى قانون .

إينيس : خلاف إرادته ؟ وماذا تجنين من ذلك ؟

الأميرة : ألم تفهمي حتى الآن ؟ فكري فيه. تعالي نتبادل الأدوار... دور الضحية الجميل الذي طالما أعجبك. حتى الآن ، كنت ، أنا القادمة من الخارج لأغزو بيتاً سعيداً. وأنت العشيقة المسكينة المخونة. شيئاً فشيئاً ، سآخذ أصبح أنا المخونة ، وأنت المغتصبة ، الدخيلة والسارقة .

إينيس : لا ، هذا لا . لا تستطيعين أن تفعلي ذلك بدم بارد .

الأميرة: آه ! أخيراً، أراك شاحبة اللون. أتتخيلينه الآن، أليس كذلك ؟ سيكون بدرو لي، دون حب، لكنه مربوط بخصري. سيكون معي بارد العواطف، لكنه ينام على مخدتي.

إينيس: أقول لك، لن تفعلي.

الأميرة: من يمنعني ؟

إينيس: كرامتك. لديك من الكبرياء ما يمنعك من أن تقدمي على مائدتك ما يفيض عن مائدتي.

الأميرة: أتعطينني دروساً في الكرامة؟ أنت ! أم هل نسيت من أنا ؟

إينيس: أنت التي نسيت من أنت بهذا التفكير الدنس.

الأميرة: كفى ! كفى ! أو أحطم وجهك. (تتقدم وقد خرجت عن طورها، وهي تهز السوط). اركعي على ركبتيك يا إينيس !

إينيس: (تطيع بهدوء). هكذا ؟

الأميرة: هكذا ! كل امرىء في موقعه !

إينيس : إذا، من موقعي أخاطبك دون صياح ولاشنشنات . أنا بعبوديتي، أقوى منك ولوكنت تملكين آلاف العبيد . أنا مع ركوعي، أعلى منك ولوكنت على العرش . والآن، اجلدي دون ندم ! لا تحرميني هذه الفرصة كيما أتألم من أجله . (ترفع الأميرة السوط متشنجة . أخيراً، ترمي به أرضاً وتنتحي مخفية وجهها . غضبها اللامجدي يتحطم بنشيج يخنقها . صمت . تلتقط إينيس السوط وتقترب لتعيده باحترام حان) . يا للمرأة المسكينة ! ...

الأميرة : اعذريني على هذا المشهد المخجل . بكيت ذات مرة وحيدة . لكنني لم أذرف الدموع أمام أحد .

إينيس : أهي الدموع وحدها ما يخجلك ؟

الأميرة : كل شيء . تفوقي الزائف، غروري البائس الذي تحطم مزقاً، خاصة هذه الكلمات المخجلة التي نطقت بها منذ قليل .

إينيس : لم تكوني أنت من يتكلم ، وإنما يأسك .

الأميرة : بإمكانك أن تكوني فخورة . جئت لمواجهتك بكل أسلحتي ، وأنت لم تحتاجي إلى سلاح واحد .

إينيس : كنت أمتلك السلاح الوحيد المجدي في هذا الصراع ، أعني الحب .

الأميرة : الحب ، والحب ، والحب دائماً ! منذ دخولي البرتغال ، وأنا أتعثر بهذه الكلمة دون أن أصل إلى فهمها . أية أرض ساحرة حيث هذه الكلمة تضم نصف اللغة ؟ !

إينيس : أليست كذلك في بلاطك ؟

الأميرة : بنيافيل أرض قاسية فيها الرجال يتحدثون عن الحرب والشرف ، والنساء عن الغيرة والجحيم . أما الحب فتتحدث عنه الكتب فقط .

إينيس : ليس في الكتب نتعلم الحب .

الأميرة : من يمتلك مفتاح هذا السر ؟ أتملكينه أنت ؟
ساعديني يا إينيس . لم أستطع الإحساس به .
ساعديني على فهمه ، على الأقل .

إينيس : سيكون صعباً عليك جداً .

الأميرة : أهو معقد كثيراً ؟

إينيس : هو واضح وبسيط كالماء . أيستطيع أحد أن يفسر الماء ؟

الأميرة : لا بد من وسيلة لنتفاهم .

إينيس : لا أظن ! (تجلس إلى جانبها كأنها أم أو صديقة) .
قولي لي : بين رجالك في بينيافيل ، ألم يقع بصرك على واحد منهم يفوق الآخرين جميعاً ؟

الأميرة : كل منهم يتفوق في مجاله : بعضهم في الشجاعة ، وبعضهم في الغزل . وبعضهم في النبل .

إينيس : أقصد رجلاً واحداً ، رجلاً ترغبين - أنت السيدة الكريمة - في أن تخدميه وتطيعيه . رجل واحد ووحيد .

الأميرة : لم أجد رجلاً واحداً على هذا الشكل .

إينيس : لا يهم . أغمضي عينيك .

الأميرة : إذاً، هذا الحب الشهير لا يعدو كونه عمى ؟

إينيس : هو أعظم من ذلك . إنه طريقة أخرى في الرؤية . احلمي أنك ذبت به حتى تتخلي عن أن تكوني ذاتك . وأن البرد الذي يصيبه ، بردك ؛ والحمى التي تعتريه تحرقك . وفراقه عنك يؤلمك كالجرح . ولوجرحت يده ، شعرت أن يدك هي التي تنزف .

الأميرة : إذاً، هو جنون ؟

إينيس : أكثر من ذلك كثيراً : هو طريقة أخرى في امتلاك العقل .

الأميرة : لا أفهمك . افهم انطباق هذه الكلمات على الروح . لكن الحب الآخر ...

إينيس : أي حب آخر ؟

الأميرة: الكتب تذكر الروح والجسد على أنهما عدوان.

إينيس: ألقي بهذه الكتب جانباً. في الحب الحقيقي، الروح والجسد شيء واحد لا ينفصم، شيء مخلوق من طين ونور. (تقف مكتوفة الذراعين، وعيناها تنظران بعيداً). إذا ضمّني إليه بدرو، روحي كلها تتخذ شكل جسمه شيئاً فشيئاً. إذا انطلق في الصباح، أظل مفرغة كثوب ألقى به السباح على ضفة النهر. ثوب ما يزال يحتفظ بحرارة غيابه. وسيكون القالب الذي سيضمه بعد عودته.

الأميرة: لكن، اتعيْنَ ما تقولين؟ ألا تحسين بالخجل؟

إينيس: الخجل يكون قبل، وبعد.

الأميرة: (تنهض مفكرة). هذا عبث ... أحاول أن أجاريك، لكن، لك لغة أخرى، وعالم آخر.

إينيس: حذرتك منذ البداية. أسهل لنا أن نشرب الماء من أن نفسره.

الأميرة: إذاً، أينبغي لي أن أسلم بألا أعلم؟

إينيس: عودي إلى بلاطك وانتظري. فإذا ظهر رجل قدرك ستعرفينه من بين الناس جميعاً. لأن الآخرين سيقولون لك ألف كلمة بصعوبة تدفعك إلى الابتسام. هو سيقول لك كلمة واحدة وسوف يجعلك ترتعشين. ذلك اليوم ستبدئين بالفهم. (تسمع أبواق الصيد).

الأميرة: حاشيتي تبحث عني. لا ينبغي لهم أن يجدوني هنا.

إينيس: في القاع مخرج يقود إلى الغابة.

الأميرة: لا أستطيع. حصاني في الباب.

إينيس: إذاً... أنقول وداعاً؟

الأميرة: وداعاً!

إينيس: دون حقد؟

الأميرة: دون حقد، وبحزن لنا نحن الاثنتين. (يدخل الملك بملابس الصيد. دون سلاح).

المذكورتان والملك

الملك: كونستانثا!

الأميرة: سيدي...

الملك: أنت في هذا البيت؟

الأميرة: ماذا يدهشك؟ ألم تأت باحثاً عني؟

الملك: البحث ليس عنك.

الأميرة: عنها؟ في هذه الحالة، اسمح لي بكلمة: لا تخاطر بسلطتك عبثاً. نحن لدينا كل القوى إلا واحدة. وهما تكفيهما قوة واحدة.

الملك: لا أطلب نصيحة. أنا أعلم ما ينبغي لي أن أفعله.

الأميرة: معذرة! شكراً لك يا إينيس. لم أشعر بالخجل

والصغار أبداً كما شعرت اليوم إزاءك. ومع ذلك لك شكري.

إينيس : وداعاً ، أيتها الأميرة.

الأميرة : دون لقب، من فضلك.

إينيس : وداعاً ياكونستانثا.

الأميرة : وداعاً يا إينيس. سيدي المحترم ... (تخرج، يقف الملك في العتبة ناظراً إليها تبتعد).

إينيس والملك

الملك : شيء لا يصدق! أهي تلك القشتالية الشامخة الأنف التي عرفتها البارحة؟ ماذا فعلتِ حتى جعلتها تخفض من غرورها؟

إينيس : لا شيء، يا سيدي.

الملك : لعلك حدثتها عن بيتك السعيد وحياتك الهدامة ...

خاصة تلك الأسطورة الخالدة التي طالما تسلت بها النساء، وأعني الحب.

إينيس : نعم، عن هذا حدثتها.

الملك : وهي بالطبع، أحست بالأنفة واختارت عدم المواجهة. الحب، نسوياً لا غبار عليه؛ لكنه، سياسياً، مدمر. لحسن الحظ، ليست هي صاحبة القرار. اقتربي. (ينظر إليها ملياً عن قرب، رافعاً وجهها).

إينيس : عما تبحث في أيها الملك ألفونسو؟ وأنت تظن أيضاً، أني سحرت ابنك بنظرتي؟

الملك : لا! وإنما كنت أفكر كيف استطعت تذكرك بوضوح، وأنا لم أرك إلا مرتين تقريباً.

إينيس : ثلاث مرات بالضبط.

الملك : لماذا تعرفين بهذه الثقة الفائقة؟

إينيس : لأنك كنت كل مرة تهدي إلي هدية لا تنسى . وأنا أحتفظ بثلاث منها . الأولى كانت يوم وصولي إلى البلاط . فحين تقدمت لتقبيل يدك ، اقترب مني ابنك . أنت نفسك قدمتني إليه .

الملك : وما أهديت إليك ذاك اليوم ؟

إينيس : أول نظرة من بدرو .

الملك : لم يخطر ببالي أنها ستكلفني كثيراً . والهدية الثانية ؟

إينيس : الثانية كانت أثناء رحلة الصيد . لمّا استطاع خنزير بري هائج أن يطعن بدرو . وسلمته لي كيما أعالجه .

الملك : وهذا ، أكان هدية ؟

إينيس : هدية رائعة . لأن الجرح كان عميقاً . وأبطأ أياماً طوالاً حتى التأم . في البداية كان الجرح جرحه وحده . وحين التأم صار « ندبتنا » .

الملك : (يسعل مشيحاً ببصره عنها وعن المكان) . والثالثة ؟

إينيس : كانت بمناسبة احتفال في قصرك في لشبونة. أذكر المائدة الضخمة والمشاعل والموسيقى ... بدرو حاول أن يراقصني أمام رجال بلاطك، ثم جرني إلى الحلبة بالقوة. نساء البلاط أحسسن بالاحتقار فتركننا وحيدين ... أتذكر عينيك المحدقتين فيّ... ومئة صوت يوشوش في أذنك: « هذه ... هذه ... هذه ... » ثم نهضت فجأة وتحطم كل شيء كقطعة بلور. وفي اليوم التالي تلقيت منك رَقّاً ثميناً: كان أمراً بنفيي.

الملك : ذاكرتك عجيبة. أرى أحياناً أنكن - النساء - تعشن الحياة بسرائها وضرائها لتتذكرنها فقط.

إينيس : يجب أن يكون في يدنا شيء للغد. وأنا الآن، يا سيدي، بانتظار هديتك الجديدة.

الملك : يؤسفني أن أضطر لإلحاق الأذى بك مرة أخرى. أنت، وإن كنت غريبة، وتعيشين خارج القانون، إحدى بنات أخواتي.

إينيس : تأخرت قليلاً بالاعتراف. لكن، شكراً لك.

الملك : لا ينبغي لي أن أنساك. وسأرى إن كنت جديرة بهذا التقدير. لأن ما سأطلبه منك تضحية كبرى.

إينيس : مهما تكنْ كبيرة لن أجد مانعاً من إطاعة ملكي. يعني... باستثناء شيء واحد.

الملك : أخشى ما أخشاه أن يكون هو هذا الشيء بالضبط.

إينيس : ابنك ؟

الملك : البارحة، أعلن تمرده بصراحة. وأحس أننا سنتصادم لامحالة. أوترضين بتحمل هذه المسؤولية ؟

إينيس : ماذا بوسعي أن أعمل ؟ أأتوسل إليه لكي يبتعد عني ؟

الملك : شيء آخر أسرع وأفضل. (يقترب). هذه الليلة... أو غداً صباحاً... يعود بدرو فيجد بيته مهجوراً.

إينيس : أأهرب ؟ وإلى أين ؟ أيوجد ركن في العالم ولا يسعى بدرو إليه باحثاً عني ؟

الملك : دون كلمات لا جدوى منها . كلمة واحدة تكفي . أأنت على استعداد للانفصال عنه . نعم ، أم لا ؟

إينيس : أمن الضروري أن تكون كلمة واحدة ؟

الملك : لا حاجة لكلمات أخر .

إينيس : إذاً ، اعذرني أيها الملك الصالح ، بأن أقول : لا .

الملك : بحياتك يا إينيس ، لا ترغميني على أن أعاملك كما أعامل رجلاً . فكري أن السلام والحرب بين شعبين هما في يدك .

إينيس : حربي وسلامي الوحيدان بدرو .

الملك : لكن ، إلى متى ستظلين متشبثة بجنونك ؟ أفيقي من غفلتك ! عشت عشرة أعوام من الحمى . والآن ، تصرفي كما تتصرف أية زوجة وأم ...

إينيس : لا أستطيع . النساء الأخريات يحببن أبناءهن لأنهم بضع من أجسادهن . وأنا أحبهم لأنهم جسد بدرو

ودمه. لست أدري إن كان ذلك عاراً أم مجداً. لكني، بعد عشرة أعوام وثلاثة أبناء، لا أحس أني زوج ولا أم، وإنما أربع مرات محبة!

الملك: مستحيل، مستحيل أن تجتمع هذه السكينة وهذا الجنون معاً. هاتي يدك. وانظري إلي مواجهة. أنت تعلمين جيداً أني من الرجال الذين لا يتراجعون.

إينيس: أعلم.

الملك: وتعلمين أنني أعطيت قشتالة كلمتي؛ وأنني سأفي بها كلفت ما كلفت.

إينيس: أعلم.

الملك: أتعلمين، ولا تغضين من طرفك، ولا يرتعد نبضك؟ لكن، أية قوة غامضة تختبىء في داخلك؟

إينيس: لا أدري. لكن بدرو يقف في داخلي.

الملك : أنا لا أؤمن بالرقى السحرية ... لكن، لماذا صارت الأميرة المتكبرة مهزومة عند خروجها من هنا ؟ لماذا فقد ابني رشده ؟ لماذا يهتف شعبي كله باسمك عبر الطرقات ؟ ماسر قوتك يا إينيس ؟

إينيس : لا أملك أية قوة . هذا الصوت الذي تسمعه ما هو إلا صدى صوته؛ وهذا الجسد الذي تراه ما هو إلا ظل له ... أنا مجرد انعكاس عنه، حتى إذا لم يستطع النهوض، سأسقط متكومة هذه الساعة نفسها ... هذا الضعف اللامحدود هو ما تسميه قوتي . (يدخل الأمير خوان، مُتملصاً بقوة حية من أمارانتا التي تحاول أن توقفه) .

المذكوران، أمارانتا وخوان

خوان : أفلتيني !

أمارانتا : مكانك ! إلى أن يعود سيدي، لن يخرج أحد من هذا البيت .

خوان : دعيني ، أقول لك .

إينيس : دعـيـه يا أمـارانتـا . (تنسـحب أمـارانتـا وهي تنحني احتراماً للرجل المجهول) . إلى أين تنوي الذهاب؟

خوان : ألـم تسمعي الصفرات الثلاث ؟ إنـهم أصدقائي . حين يصفرون على هذا الشكل ، معناه أنهم بحاجة إليّ .

إينيس : أتسير أعمى حتى لا تلمح وجود شخص معي .

خوان : معذرة . حفظك اللّه ، أيها الرجل الطيب .

الملك : حـفظك اللّه ، أنت ، يا زغلول . (تسـمع صـفـرات ثلاث) .

خوان : مرة أخرى ! أتسمعينها الآن يا أمي ؟

إينيس : أجبهم بأنك لا تستطيع الخروج حتى المساء .

خوان : لكن ، لا يمكن أن أرفض طلباً لصديق .

إينيس : لهـذا السـبب نفـسـه ، أطلب منـك . ألسنا صـديقـين أنا وأنت؟ إذاً ، أجبهم .

خوان : (مستسلما دون رغبة). لا بأس !(يتوجه إلى المرقب ويجيب محركا قماشة عدة مرات كإشارة متفق عليها، في حين يتحاور الملك وإينيس بصوت خفيض).

الملك : الابن الأكبر ؟

إينيس : صبي معافى وقوي . يمكنك أن تحاوره . (تشير إلى أنها ستنسحب). أتريد ؟

الملك : كلا ! من فضلك لا تتركينا وحيدين .

إينيس : أي خوف يمكن أن يثيره طفل فيك ؟

الملك : أمقت كل أشكال «العاطفية » .

إينيس : لا تهتم . هو أيضاً ليس عاطفياً . وفوق ذلك ... لا يعرف .

الملك : إلام تطمحين ، إذاً ؟

إينيس : ربما رغبت في أن تقول لي كلمة طيبة ذات مرة ، لكن

شؤون الحياة حالت بينك وبينها . هو خال من كل خطيئة . قلها له .

الملك : سيكون وقتاً ضائعاً . لكن ، إن كان الأمر يعنيك جداً ، فليكن . دعينا معاً .

إينيس : شكراً . الزم السيد ، وقم بخدمته إن احتاج إلى شيئ . هو ضيف أرسله الرحمن لك . بالإذن من السيد . (تخرج) .

الملك و خوان

خوان : أنت أيها الرجل الكبير ، أتحتاج إلى شيء مني ؟

الملك : من يدري !

خوان : إن كنت أضعت الطريق ، أنا أعرف الطرقات كلها . أأرافقك ؟

الملك : كلا ! طرقاتي علي أن أسلكها بنفسي .

خوان : جائع ؟ أخبىء في غرفتي أربع تفاحات . أأجلبها لك ؟

الملك : لا وشكراً لك . أنا لا أجوع أبداً .

خوان : أبداً ؟ ما أغرب ذلك ! عجائز منطقتنا جائعون دائماً .

الملك : ذات يوم ، سأصلح هذا أيضاً .

خوان : إذاً ، إلى ماذا تحتاج ؟

الملك : إلى أن نكون صديقين . ألديك أصدقاء كثيرون ؟

خوان : ثلاثة . يفدونني بأنفسهم ، وأنا أفديهم بنفسي .

الملك : من النبلاء ؟

خوان : أبناء صياد السمك والحداد والحطاب .

الملك : وأمك ، تتركك تعاشر هؤلاء الناس ؟

خوان : ولم لا ؟

الملك : هؤلاء الصبيان ليسوا أمثالك .

خوان : بالطبع ! ابن الحطاب يصفر كالعصافير ؛ وابن الحداد

يصنع سكاكين؛ وابن الصياد يقود قارب أبيه. وإلى أن أتعلم كل ذلك نصبح متساوين.

الملك: أهم أؤلئك الذين يبحثون عنك الآن؟

خوان: كنا سنلعب لعبة: «الملك والصياد المتخفي». لكن، كان علينا أن نلقي قرعة، لأننا نرغب جميعاً في لعب دور الشخص نفسه.

الملك: الملك؟

خوان: ياه! دور الملك يصلح له كل واحد. الدور الصعب هو دور الصياد: عليه أن يركض، ويختبىء ويتسلق الأشجار.

الملك: يبدو أنك تميل إلى الصيادين أكثر من ميلك إلى الملوك. أعلمك أحد أن تبغضهم؟

خوان: أبغضهم؟ ولِمَ؟ أنا نفسي، جدي ملك.

الملك: من قال لك ذلك؟ أهي أمك؟

خوان: كل الناس يقولونه هنا.

الملك: قد لا يكون حقيقة.

خوان: أتمنى ذلك.

الملك: لا تقل ذلك بحقد. ألا تحب أن تعرف جدك ؟

خوان: ولأي شيء ؟ هو لم يرد أن يتعرف علي قطّ.

الملك: وإذا كان يريد ولا يستطيع ؟ الملوك لا يفعلون مايريدون دائماً.

خوان: إذاً، لماذا هم ملوك ؟

الملك: هكذا خلقوا. ألم تقل لك أمك أبداً أنك تشبهه ؟

خوان: حسب الحال. حين تكون مسرورة تقول إني أشبه أبي. وحين أدفعها إلى البكاء تقول إني مثل جدي.

الملك: وأنت، أيهما تريد أن تشبه ؟

خوان: لا أحد منهما. أريد أن أكون أنا ذاتي.

الملك : ولا شيء آخر ؟ أنت مغرور جداً .

خوان : وأنت ، ألست كذلك ؟

الملك : كنت سابقاً . الآن ، حنت رأسي السنون .

خوان : كم سنة عمرك ؟

الملك : أكثر مما يمكنك تخيله .

خوان : كم ؟

الملك : مئتا عام .

خوان : كذب ! الضباط يبلغون ثلاثين عاماً ، والعلماء ثمانين ، والشحاذون يصلون إلى المئة . ولا أحد يتجاوز هذا الحد . لماذا تقول إنك بلغت المئتين ؟

الملك : هي عمر البرتغال .

خوان : كلامك غريب جداً . لا تبدو رجلاً كباقي الرجال . ماهي مهنتك ؟

الملك : حسبما صرت أعي، أغرب مهنة يمكن أن يقوم بها إنسان. أنا ملك بائس !

خوان : لا يمكن أن يكون. الفقراء يلبسون ثياب الفقر، والملوك ثياب الملوك. أين سيفك وتاجك ؟

الملك : سيفي ثقيل جداً. فليس بإمكان رجل واحد حمله. يحتاج إلى أربعين ألف رجل لرفعه.

خوان : أهو ثقيل جداً ؟

الملك : بوزن مئة معركة.

خوان : والتاج ثقيل أيضاً ؟

الملك : أثقل من الحياة. (يجلس مغموماً).

خوان : على شكل ما، أنت ملك بائس حقاً. أليس لك بيت ؟

الملك : كبير جداً علي وحدي.

خوان : وبناتك ؟

الملك : أية بنات ؟

خوان : الملوك لهم دائماً ثلاث بنات .

الملك : لا بنات لي .

خوان : وأبناء ؟

الملك : كان لي ابن واحد وقد فقدته .

خوان : أحفاد ؟

الملك : لا أستطيع الاقتراب منهم .

خوان : إذاً، أنت على حق . يا للملك المسكين ! أيمكنني مساعدتك ؟ ...

الملك : من فضلك : مدّ لي يديك .

خوان : يدي الاثنتين ؟

الملك : لكي أدفئ يدي . (يجلس إلى جانبه . يتبادلان النظرات بصمت فترة طويلة) .

خوان: لماذا تحدق في ؟

الملك : أرغب في أن أحفظ شكلك في ذاكرتي خشية ألا أراك مرة أخرى . وأنت أيضاً لست طفلاً كسائر الأطفال . تتكلم كأنما عانيت كثيراً. كم سنة عمرك ؟

خوان: أكثر من أصابع يد واحدة وأقل من اصابع يدين اثنتين .

الملك : آها ! أتحب الألغاز ؟

خوان: وأنت، ألا تعجبك ؟

الملك : بالضرورة . الحزر يشكل نصف عملي .

خوان: لنر، إن تعرف هذا : (بسرعة كبيرة) .

أي شيء، أي شيء

يصفر دون فم

ويجري دون قدمين

ويلطمك على وجهك

ولا تراه ؟

الملك : (مضطرباً بسبب السرعة). ماذذا ؟

خوان : (يكرر ببطء ووضوح).

يصفر دون فم

ويجري دون قدمين

ويلطمك على وجهك

وأنت لا تراه ؟ ...

أتحزر ؟

الملك : أهي الريح ؟

خوان : أحسنت ! الريح ! والآن دورك.

الملك : دعني أفكر.

خوان : دون تفكير.

الملك : أي رجل، أي رجل

يحترق ويحس بالبرد

وينظر ولا يستطيع أن يرى

ويقف على حافة الماء

ويموت من العطش ؟

خوان: من هو ؟ (يجذبه الملك نحوه. يبدو للحظة أنه سيعانقه). من ؟

الملك : (يتنحى). لا أحد ... إنها سخافة.

خوان: من يقف على حافة الماء ويموت من العطش ؟

الملك : انس ما قلته. (يتجه صوب الباب).

خوان: أذاهب الآن ؟

الملك : علي أن أتابع طريقي ... مهما حملني بعيداً.

خوان: خسارة ! أترحل الآن، وقد بدأنا نصبح صديقين !

الملك : (يقف في العتبة). أتعتقد أننا يمكن أن نصبح صديقين بحق ؟

خوان : إذا حلفنا اليمين، نعم. (يجلس على الأرض، ويحدد له مكاناً إلى جانبه). تعال اجلس.

الملك : أمن الضروري أن أجلس على الأرض ؟

خوان : هذا أفضل؛ بذلك نصبح متساويين تقريباً. أتأتي أم لا؟

الملك : سآتي... (يجلس إلى جانبه).

خوان : ما اسمك ؟

الملك : ألفونسو.

خوان : أنا، خوان. ضع يدك اليسرى على قلبك واضغط بالأخرى علي، قل كما أقول: الاثنان لواحد، والواحد لاثنين. ومن لا يف عليه لعنة الله.

الملك : اثنان لواحد، والواحد لاثنين ومن لايف عليه لعنة الله .

خوان : اقسم على ذلك بالصليب .

الاثنان : (يقبلان سبابتيهما المتصالبتين) . قسماً عظماً !

الملك : والآن ؟ ...

خوان : الآن، السر . أنا أقول لك سراً . وأنت تقول لي سرك .

الملك : قل !

خوان : أتذكر أني عرضت عليك من قبل تفاحات خبأتها ؟ (ينظر حواليه بإيماءات كبيرة، وينحني فوق أذنه) . سرقتها من الدير قافزاً فوق السور . (إشارة صمت مريبة واضعاً سبابته على شفتيه) . والآن، دورك .

الملك : (يكرر اللعبة بدقة) . أسمعت بأرض النخيل والليمون المسماة أرض الجرفة ؟ سرقتها من العرب قافزاً فوق الحدود . (يجعله يقوم بحركات الصمت ذاتها

وينفجران ضاحكيْن معاً. يصفق على ركبة الطفل. والطفل يجيب بالصفقة نفسها. يظهر بدرو في العتبة وينظر إليهما لحظة. يتقدم. يهرع الطفل فرحاً للقائه. ينهض الملك مضطرباً منتحياً).

المذكوران و بدرو

خوان: أبي، هذا صديق جديد. حلفنا اليمين منذ قليل.

بدرو: (دون أن يتخلى عن النظر بثبات إلى أبيه، بينما يقود الطفل إلى الباب الداخلي). أنا سأهتم به. عد إلى أمك.

خوان: (بصوت متوسط الشدة). لا تعامله بسوء! هو ملك مسكين... وعجوز جداً حتى لا يستطيع حمل سيفه وحده. (للملك بصوت عال). لا تنس، إيه؟ إذا احتجت إلى شيء ذات مرة، صفر ثلاث صفرات. وداعاً، يا ألفونسو! (يخرج راكضاً).

الملك: وداعاً يا خوان! (يتحاشى نظرة ابنه، ما يزال خجلاً من ضعفه).

الملك وبدرو

بدرو: من الخطر اللعب مع الأطفال، أم أنك نسيت حلمك المشهور ؟

الملك: أي حلم ؟

بدرو: بالأمس قصصته علي كأنه نبوءة: طفل يصارع أسداً. وانتهى الأسد ممرغاً في التراب.

الملك: لحسن الحظ، أنك جئت فأيقظتني. لو امتدت اللعبة أكثر قليلاً، ربما كان الحلم تحقق. شكراً لوصولك في الوقت الملائم.

بدرو: أإلى هذا المدى كنت ضائعاً عن نفسك ؟

الملك: أعترف أني كنت على شفاالسقوط في أقدم شكل من الكمائن. لكن الخطر مضى. يمكنك أن تقول لإينيس إن خدعتها أخفقت.

بدرو: بأي غرض جئت هذا البيت ؟

الملك : مجرد فضول . كنت ماراً من هنا .

بدرو : كلا ! كنت تنتظر خروجي لتنفرد بإينيس . امرأة محبة تضحي بنفسها بسهولة إن جعلتها تعتقد أن سعادتها نكبة على حبيبها . أليس هذا ما تبحث عنه ؟

الملك : بالضبط . لكن ، لا تخش شيئاً . إينيس أقوى منك على الرغم من هياجك وعجيجك .

بدرو : والطفل؟ ماذا كنت تصنع له وحيداً؟ ألم تقل إنك لا ترغب في أن تراه؟

الملك : كان خيراً لي أن رأيته . إذ عرفت إلى أي مدى نحن مختلفان . لا أنكر عليك أن فيه سحر أمه كله ، لا ينقصه أيضاً أي عيب من عيوبك .

بدرو : عيوب ؟ طفل في السابعة وفيه عيوب .

الملك : نعم . ظريف أن يعجب اليوم بالصيادين المتخفين ، والفاكهة المسروقة . في المستقبل قد يكون خطراً .

بدرو : أهذا كل ما أوحى إليك به حفيدك؟

الملك : بل ابنك .

بدرو : كلمات! كل ما ولد مني ينتمي إليك .

الملك : أمام القانون ، لا !

بدرو : تطالعني بالقانون دائماً! أنت تفكر في القانون أكثر مما تفكر في العدل .

الملك : يعود بي الفكر إلى أيام شبابي ، ولا أريد للقصة أن تتكرر . أبي حاول أيضاً أن ينصب على العرش أحد أبنائه غير الشرعيين . هو وإن كان أعظم ملوكنا ، لم أتردد بإشهار السلاح عليه . والآن ، أتريد أن تبعث ما كلّفني حرباً مميتة مع والدي؟

بدرو : قضيتي تختلف اختلافاً تاماً .

الملك : قضيتك أسوأ . لأن الأم أيضاً ، ليست نظيفة !

بدرو : لا تشتمها أمامي . . . لا ترغمني على الكلام .

الملك : تكلم! ماذا بوسعك أن تعترض على هذه الحقيقة المحزنة؟ الأم غير شرعية، والأبناء غير شرعيين.

بدرو : أحقاً؟ إذاً، اسمع جيداً هذه المرة. كنت أقسمت أن أحفظ ذلك سراً مدى حياتي : لكنني صرت لا أستطيع. لا أبنائي هم أبناء ضِلّة، ولا إينيس هي خليلتي! إنها زوجتي!

الملك : (يلتفت بعنف. وقد شحب صوته). ماذا قلت؟

بدرو : قلت إن أبنائي هم أحفادك الشرعيون. وإن إينيس زوجتي شرعاً.

الملك : إينيس، زوجتك؟ منذ متى؟ . . .

بدرو : منذ أيام المنفى.

الملك : كاذب! هي مهزلة اخترعتها الآن لتكسب وقتاً.

بدرو : الأمر ليس ابن ساعته. كان ذلك منذ سبع سنين في براغانثا، اليوم الأول من كانون الثاني.

الملك : لا ، لا أريد أن أصدق . من عقد قرانكما؟

بدرو : مونسينور دون خيل . أسقف غواردا .

الملك : والشهود؟

بدرو : إستيبان لوباتو ، مدير بيتي .

الملك : إذاً . . . إذاً ، هو صحيح؟

بدرو : سيكون غباء فاحشاً لو كذبت .

الملك : أتظن أن هذا يكفيك لمواجهتي؟ أهي طعنة في الظهر؟ كلا ، يا بدرو ، كلا! ما زلت أنا ، من يصنع القانون وينقضه هنا . وأنا أعلن زواجك غير شرعي .

بدرو : لم يعقده قضاتك : وإنما عقد أمام الأناجيل والصليب .

الملك : ستلغيه الكنيسة ذاتها .

بدرو : لأي سبب؟

الملك : لسبب القرابة الدموية. إينيس إحدى بنات عماتك.

بدرو: منذ عشرين عاماً حصلت لي على إعفاء من مانع القرابة، حين كان البابا خوان صديقك الكبير، وكنت تفكر في تزويجي، مذ كنت صغيراً، بإحدى بنات عمتي الإسبانيات. معذرة، أنا لم أصنع شيئاً إلا سلوك الطريق الذي شققته لي بنفسك.

الملك : أوكشف لك المونسنيور عن ذلك؟ إذاً، أذكركما كليكما، أنْ لا سلطة داخل حدودي سوى سلطتي. وأن ما تصنعه أبينيون[1] بالأمس يمكن أن تنقضه اليوم.

بدرو: عبثاً تحاول يا أبي. أنت تعرف جيداً: لا البابا اينوثينثيو سيمحو ما وقعه البابا خوان ولا أنت تستطيع فك ما ربط أمام الله، مهما بدا لك مؤلماً.

الملك : (غاضباً. رافعاً صوته.) هذا ما سنراه! لا تهمني الفضيحة، ولا نقض كل محاكم المسيحية. كل شيء إلا الاعتراف بهذا الزواج المعقود غدراً خلاف

---

(١) أو أفينيون كما تلفظ بالفرنسية. مدينة فرنسية كانت مركز البابوية من عام ١٣٠٧ حتى ١٣٧٩. وظلت تحت سلطة الكنيسة حتى عام ١٧٩١. المترجم).

إرادتي وإرادة البرتغال. (تدخل إينيس متوسلة).

المذكوران وإينيس

إينيس: بأغلى ماتحب، يا سيدي! اطلب الروح والحياة، لكن اطلبهما منا معاً! أحلفك بذكرى الملكة سانتا. (تهم بالركوع. يوقفها بدرو).

بدرو: هذا لن يكون! لا أريدك ذليلة أمام أحد! قفي معي!

إينيس: بدرو حبيبي! (يطوق كل منهما الآخر).

الملك: هكذا أفضِّل العدو: أن يقف مواجهة. إلى الآن، لم أحس إلا بالأسى والشفقة عليك، يا إينيس. ومنذ الآن، لا تنتظري حماية ولا عفواً. فليحمك الله. (يخرج. إينيس تحاول إيقافه).

إينيس: سيدي... سيدي!

بدرو: اهدئي! لعلك لم تتخاذلي أمامه. أليس كذلك؟

إينيس: أقسم لك. لا أمامه ولا أمام الأميرة.

بدرو: وهي كانت هنا أيضاً؟

إينيس : كانت هنا أيضاً. لكنني إزاء الاثنين، اتّبعت كلماتك حرفياً! قاتلت كرجل، دون خوف ولا دموع. وهكذا قاومت ساعة لا نهاية لها شاعرة كل دقيقة أنني سأسقط، وأنا أناديك صارخة من أعماق داخلي.

بدرو : عذبوك وأنا بعيد عنك.

إينيس : لا يهم. مضى الأمر. والآن ... ما أروع هذه اللحظة !

بدرو : لكن، ماذا بك ؟ مالك ترتعدين من أخمص قدميك حتى قمة رأسك ؟

إينيس : ألا تفهم ذلك ؟ فبعد صمود قوي أمام رجل، ما أبهج أن أحس بضعفي مرة أخرى ! وأن يتملكني أيضاً هذا الخوف الصغير ! وأن أعلم أن ذراعي تفيضان عني حين لا تكون هنا ! وأن أستطيع البكاء مرة أخرى كأية امرأة سعيدة ... سعيدة ! (تعود أبواق الصيد إلى شكواها الطويلة).

ستار

الفصل الثالث

المنظر الأول

في قاعة قصر ألكازار. ليلا

الملك- كويو- ألبار- باتشيكو. الملك يتمشى نافد الصبر، مثاراً، ومستمعاً إلى مستشاريه الساكنين.

الملك : لا أريد ثرثرة جوفاء. لم أجمعكم في مجلس لأستمع إلى حكايات. ولا يمكن الوصول إلى نتائج جد خطيرة إن لم تكن ترتكز على حجج محكمة.

كويو : أما تزال تشك بوجود انتفاضة شعبية تحت غطاء هذه الغراميات المشهورة ؟

الملك : أريد وقائع ! وقائع .

كويو : صباح أمس، وجدنا كل أبواب قصورنا وقد كتب عليها بالأحمر الحرفان الأولان متداخلين من اسمي إينيس وابنك . إنه استفزاز آخر .

ألبار : الفلاحون اتخذوا هذين الحرفين نفسيهما شعارين حفروهما على سكاكينهم في كروم الزيتون .

كويو : حانات كوئيمبرا امتلأت بإسبان وقحين يشربون خمراً غاليسيا، ويتبادلون الأنخاب بتحدٍّ أمام عيون جنودك، وينادون بإينيس دي كاسترو ملكة لهم .

الملك : لا تهمني سكاكين الفلاحين ولا أنخاب السكارى .

كويو : ليس الإسبان وحدهم، وإنما آلاف من البرتغاليين يظنون أيضاً أن العرش الحقيقي ليس هنا . وإنما هو في دارة سانتا كلارا .

ألبار : إذا كانوا يجرؤون الآن على فعل ذلك، فكيف بهم حين يسري خبر هذا الزواج السري ؟

الملك : تكلم يا باتشيكو. أنت، وإن كنت أصغرهم سناً، لا أعرف رأيا ناضجاً كرأيك. لماذا تصمت ؟

كويو : لن يتكلم. هو صديق حميم لبدرو ولدونيا إينيس.

باتشيكو : يقيناً يا سيدي. هما أكثر من صديقين. إنهما أخوان لي.

ألبار : أتسمعه يا سيدي ؟ لا تستمع إلى نصيحته.

باتشيكو : حتى الآن، دافعت عن هذا الحب. ولن أنكر على أي رجل حقه في أن يهلك في سبيل امرأة. لكن سلامة البلد تعني شيئاً آخر.

الملك : إذاً، أتعتقد أنت أيضاً، أن هذه المرأة المسكينة خطر على البلد كله ؟

باتشيكو : ليست هي الخطر. نحن حولناها، بين أشياء أُخر إلى رمز. (يتقدم خطوة). أنت نفسك، لو لم تكن ملكاً، في أي جانب كنت تقف ؟

الملك : طلبت منك أجوبة وليس أسئلة.

باتشيكو : (يتراجع). معذرة !

الملك : باختصار : أتعد إينيس مذنبة ؟

باتشيكو : بل بريئة . لكن ، ما أهمية الذنب هنا؟ الدولة لا تتطلع إلى ماهو عادل وغير عادل . لكنها تنظر إلى ما هو ضروري .

الملك : أهناك ضرورة ملحة تقضي بمعاقبة بريء عن عمد ؟

كويو : المشاغبون اتخذوا هذه المرأة راية لهم . أول ما يجب عمله انتزاع الراية من العدو .

الملك : أهي نصيحتك أيضاً ؟

باتشيكو : أيمكن أن تكون شيئاً آخر ؟ الأميرة ، في هذه اللحظة ، تعني سلامنا . وإينيس وعد مؤكد بتمرد وحرب . لا مجال للشك في ذلك .

المذكورون وكبير الضباط

الضابط : سيدي ... كل حججي وأعذاري ذهبت أدراج الرياح . الأميرة أوعزت إلى موكبها بالاستعداد . ومنذ الصباح ستباشر رحلة العودة إلى قشتالة .

الملك : لن يخرج أحد من كوئيمبرا دون إذن مني !

الضابط : أينبغي لي أن أوقفها بالقوة ؟

الملك : مر بمضاعفة الحراسة وانتظر . في ليلة واحدة قد تحل أمور كثيرة . أين الأمير ؟

الضابط : في الغرفة المواجهة ، بانتظار أمرك .

الملك : دعه يدخل . ولا تبتعد ، أنت ، كثيراً . أخشى أن أحتاج إليك . (يخرج الضابط . الملك يتأمل متفكراً بحاره الأسطورية والرسوم الكاريكاتورية على سفينة . يقترب من مسند كتاب . يفتح كتاباً كبيراً فيه خارطة البرتغال يمسحها بيده كأعمى يتلمس وجه حبيب . يدخل بدرو .)

الملك ، كويو ، ألبار ، باتشيكو و بدرو .

بدرو : سيدي ... (يجيب على تحية النبلاء بانحناءة صامتة) .

الملك : اقترب يا بني ، واسمعني بهدوء ، لأنها الفرصة الأخيرة لعقد سلام كريم بيننا . ماذا ترى هنا ؟

بدرو : البحر والبرتغال .

الملك : لا تنس أبداً هاتين الكلمتين مجتمعتين : البرتغال والبحر . وهنا قشتالة الحارة ودون ماء . أراغون تقطع الطريق عليها إلى البحر المتوسط ، ونحن إلى المحيط الأطلسي . فإذا لم نكن أقوياء ، ستندفع قشتالة الميتة من العطش نحونا كما تندفع أنهارها اليائسة باحثة عن بحرنا . انظر إلى نهر التاخو الممتد كذراع من طليطلة إلى حلق لشبونة . أتدري ما الذي يعنيه هذا ؟

بدرو : تعلمته مذ كنت صبياً . هم شعب من الفلاحين ونحن من البحارة . هم يبنون أسواراً ونحن قوارب . الأرض اليابسة لقشتالة ، ولنا البحر .

الملك : تماماً . والمصير واضح . لكن ، إن كنا احتجنا إلى مائة عام من الحرب لنصبح أحراراً ، فالآن يلزمنا مائة عام أخرى لنصبح أقوياء . تعريض هذا المستقبل للخطر خيانة لمستقبلنا .

بدرو : يقيناً . المؤلم أن كل هذه الكلمات الفخمة تخفي شيئاً صغيراً جداً . أكل هذا التهديد الرهيب يدعى إينيس؟

الملك : في هذه اللحظة ، نعم . إن كنت تود أن تتطلع إلى البحر وظهرك محمي ، زوج أبناءك ببنات ملوك قشتالة . هي ضمانة السلام الوحيدة .

بدرو : منذ متى ؟ أنت تزوجت بأميرة قشتالية ، وخضت أسوأ حروبك مع قشتالة .

الملك : قمت على الأقل ، بما استطعت لتجنبها . أنت ماذا لديك لتقدمه للبرتغال ؟

بدرو : أولاً ، أنا بحاجة لأعرف أية برتغال ؟

الملك : ألم تعرفها منذ ولادتك ؟

بدرو : هذا ما كنت أظنه . وأخذت أشتبه في ذلك . حين تذكر أنت البرتغال ينصرف فكرك إلى بلد منصب بكامله نحو البحر كأنه قارب كبير . حين يقول مستشاروك ذلك يفكرون بقلاعهم وغلال أراضيهم . حين

أذكـرها أنا، أفكر بالنسـاء المـحـبـات وبالأبناء، وبالفلاحين الفقراء الذين يعملون وهو يغنون لينسوا جوعهم. ثلاث صور للبرتغال، أتستطيع أن تقول لي أيها الحقيقية ؟

الملك : لم أعقد مجلسي لمناقشة كلمات وإنما لاتخاذ قرارات !

بدرو : ماهي ؟

كويو : (يشير إلى ورقة على المنضدة). هنا يا سيدي قرار يعلن أن زواجك السري غير شرعي ويطلب إلغاءه. لا ينقصه شيء غير توقيعك.

بدرو : ولا شيء آخر ؟ مؤسف أن وثيقة بهذا الجلال تظل عديمة الأهمية بسبب تفصيل صغير جداً.

الملك : دون سخرية يا بدرو، وقع !

بدرو : بإمكانك أن تطلب مني كل شيء ما عدا التضحية بإينيس.

الملك : إينيس ! إينيس ! ... أتسمعونه ؟ ولماذا نحدثه عن

أراض وبحار إن كان هو يختصرها إلى حجم امرأة ؟ ألا تنتظرون مني أن أقدم لكم ملك الغد الكبير والمشرع والبطل ؟ ها هو ! فعوضاً عنه أعطاني اللّه رجلاً بائساً كل طموحاته محصورة ضمن حدود مخدع، وكل معاركه ساحتها ملاءة بيضاء. واخجلي ! هذا كل ما سأخلفه لكم.

بدرو: لا، يا أبي ! دون شتائم يبتهج بها رجال بلاطك. (يتأهب للخروج).

الملك: مكانك !

ألبار: (يقترب من بدرو). اهدأ، يا سيد.

باتشيكو: إن كنت تحسب أنك تحمي إينيس بهذا السلوك، فإنك لا تعمل شيئاً إلا تعريضها لخطر أكبر. (يتوقف بدرو دون أن يلتفت).

كويو: نحن عرضنا عليك صفقة قانونية لفك هذا الزواج.

الملك: قدِّرْ إلى أي مدى تدفعنا إن رفضت التوقيع. إن استعصت عقدة على الحل تقطع.

بدرو : (ينقلب شاحباً). تقطع ... ؟ ماذا تعني بهذه الكلمة ؟ (يتهرب الملك من نظرته). أسمعت جيداً، يا كويو ؟ (يغض كويو من بصره). أصحيح ما سمعته ... ؟ (يغض ألبار غونثالث من طرفه). لا، لا يمكن أن يكون حقيقة. (يتجه صوب باتشيكو). هذان قد تواتيهما الجرأة ... لكنك أنت، كنت رفيقي ... جلست مئة مرة إلى مائدة إينيس ... (يتشبث بذراعيه بحركة عنيفة من القلق). انظر إلي يا باتشيكو ! ...

باتشيكو : أرجوك، يا سيد ... (يتنحى. بدرو يرد بصوت أصم يتغرغر في فمه).

بدرو : آه ! إذاً أنت أيضاً ؟ ولماذا ثلاثة فقط ؟ لماذا لا يكون ثلاثمائة رجل لمواجهة امرأة واحدة؟ جبناء ! ...

الملك : هم يقومون بواجبهم ولا يستطيعون إجابتك ! وجه كلامك إلي !

بدرو : إذاً، أقول لك : اصنع بي ما تشاء. لكن لا تتجرأ عليها. لأنك حينئذ لن تكون ملكي ولن تجد عدواً أعدى لك مني !

الملك : بدرو ! ...

بدرو : أقسم بخلاص روحي ! (يتقدم مصمماً).

الملك : ألك الجرأة على أن ترفع يدك على أبيك ؟

بدرو : ألم ترفعها أنت على أبيك ؟

الملك : كفاك ! إليّ، يا حرس ! أيها الضابط ! ... (يدخل الضابط وأربعة جنود).

المذكورون، والضابط والجنود

الضابط : سيدي ...

الملك : (يضبط صوته). الأمير يعاني من نوبة جنون وهويحتاج إلى استراحة طويلة. قده إلى قلعة مونتيمور.

الضابط : ماهي التعليمات ؟

الملك : عزلة تامة؛ فلا يكتب لأحد، ولا يودع أحداً. وأذكرك خاصة أن طريق مونتيمور لا تمر بأي شكل قرب دارة سانتاكلارا. مفهوم ؟

بدرو : وداعاً، أبي وسيدي. وأنتم لا تنسوا: هنا، أو في أي ركن من الأرض، غداً أو خلال عشرين عاماً، لا فرق. من يمس شعرة من شعرها خير له ألا يكون ولد ! أنا تحت أمرك أيها الضابط. (يخرج مع الجنود. يضعف الملك لحظة ويستند إلى المنضدة).

الملك ، ألبار، كويو ، باتشيكو

كويو : لعلك رأيت يا سيدي، أن الجرح أعمق مما حسبناه.

ألبار : خطوة أخرى، وكنا إزاء ثورة عارمة.

باتشيكو : عسانا تداركنا الوضع في الوقت الملائم.

الملك : نعم، تداركناه هو. السجن سيتولى أمر ترويضه. والآن علينا التفكير فيها.

ألبار : أي تفكير ؟ ألم تصدر الحكم عليها منذ هنيهة ؟

كويو : في أيّ شيء كنت تفكر، حين قلت إن العقدة المستعصية تقطع ؟

الملك : لا أدري ... الكلمات تسبق التفكير أحياناً . وأنتم، في أيّ شيء تفكرون ؟

كويو : في الحلّ الوحيد الذي بقي لدينا .

الملك : قله : ألفظ مرة واحدة هذه الكلمة اللعينة التي نحوم حولها جميعاً .

كويو : الموت !

الملك : الموت . ما أسهل قوله ! لكن ، ماذا يكون حكمك ، إن وجب عليك أن تنفذه بيدك ؟

كويو : الحكم ذاته يا سيدي .

الملك : ما كنت أعلم أنك تبغضها هذا البغض . وأنت يا ألبار ؟

ألبار : الموت يا سيدي !

الملك : وأنت ، أتكن شيئاً من الحقد عليها ؟

ألبار : أنا أقوم بواجبي .

الملك : حسن ! والآن، أنت يا باتشيكو، ستقرر. لكن فكر أولاً، فيما نحن مقدمون عليه. من كنت حتى الآن ؟ ملك مائة معركة. وأنتم ؟ النبلاء الثلاثة الكبار. لا بأس: لنقتل إينيس هذه الليلة. وغداً، لن أكون إلا ملك الجريمة؛ وأنتم ثلّة من الخونة.

كويو : لا يستطيع أحد أن يقول ذلك.

الملك : سيقوله الشعب والشعراء معاً. سيقال دائماً إن امرأة كانت في الوسط.

باتشيكو : وماذا يهمك ؟ عملك صنع التاريخ. وليرووه هم كما يشاؤون.

الملك : دقيقة أخرى. أنت كنت صديقاً عزيزاً لإينيس. أليس كذلك ؟

باتشيكو : جداً.

الملك : أتتذكر شيئاً عنها. مهما يكن صغيراً... لكنه حي، كأنما تراه أمامك.

باتشيكو : ولأي شيء يا سيدي ؟

الملك : لا تسأل وإنما تذكر .

باتشيكو : ذات مساء حار وصلت إلى فنائها في سانتا كلارا أكاد أموت عطشاً . وجدتها تمتح الماء من البئر ، وسقتني بيدها . وفي آخر جرعة قبلتها ضاحكاً .

الملك : هكذا ، يا باتشيكو ! شمس حارقة ، وماء بارد ، وقبلة ضاحكة ! تذكرها على هذا الوضع ! والآن قل حكمك . (باتشيكو ينظر إليه طويلاً متأثراً . الملك يلح محموماً) . انطق به ، إن واتتك الشجاعة ! قله !

باتشيكو : (يغض من طرفه ، ويجيب في النهاية بمرارة) . الموت يا سيدي !

الملك : (بصوت يكاد لا يسمع) . الموت ! (يسقط مغموماً فوق كرسي واطيء ، ويظل ساكناً ووجهه بين يديه . يقترب المستشارون شيئاً فشيئاً) .

ألبار : لماذا ينتابك الشك اليوم ؟

كويو : حين كنت تعرض لأمور شعبك ما كانت توقفك حدود ولا أوبئة ولا حروب. والآن، اتوقفك امرأة ؟

ألبار : (مقترباً). سيدي ! ... (صمت).

باتشيكو : (يلمس كتفه برفق). سيدي ...

كويو : لكن، ماذا جرى له ؟ أيبكي ؟

باتشيكو : أسوأ من ذلك. ملكنا الكبير هو ببساطة عجوز ... إنه نائم ...

الملك : (ساكنا. ببرود). كلا، يا باتشيكو ! لا البكاء ولا النوم مسموح لي بهما. (يرفع رأسه أخيراً. ينهض ويستعيد صوته الآمر). مر بتجهيز جياد ومجموعة جنود.

باتشيكو : إلى أين يا سيدي !

الملك : إلى دارة سانتا كلارا ! !

ستار

المنظر الثاني

ليلاً في الدارة. مخدع إينيس. سرير عليه غطاء حريري. قناديل زيتية أمام إيقونة بيزنطية للعذراء. سجادة صلاة مخملية حمراء. في القاع مشربية يدخل منها ضوء القمر.

إينيس وأمارانتا. إينيس شعرها مرخى الذوائب، عليها ثوب حرير فضفاض كثياب النوم. أنهت صلاة (صل من أجلنا). تجيبها أمارانتا راكعة على الأرض.

إنها صلاة تؤدى ببساطة منزلية كما تؤدى كل يوم، دون أية مهابة إلا ما تتضمنه الكلمات ذاتها.

إينيس: يا ملكة الشهداء!... ملكة العذارى!... الملكة البريئة من الخطيئة الأصلية... ملكة السلام.
يا يسوع الحمل. يا حامل خطايا العالم.

أمارانتا : استجب لنا يا ربنا !

إينيس : يا يسوع الحمل، ... يا حامل خطايا العالـم !

أمارانتا : استجب لنا يا ربنا !

إينيس : يا يسوع الحمل ...

أمارانتا : ارحمنا يا رب .

الاثنتـان معاً : آمين ! (يرسمان شارة الصليب . إينيس تقبل صليب مسبحتها . تعودان إلى حوارهما بالبساطة التي أدتا بها الصلاة) .

إينيس : لا شك ، أن الوقت متأخر !

أمارانتا : ارتفاع نجم الدب يشير إلى أن الوقت حوالي منتصف الليل . ألن تنامي ؟

إينيس : انصرفي ، أنت ، إن كنت نعسانة . أنا لا أستطيع النوم من دونه . ولن أحصل على شيء إلا زيادة قلقي .

أمارانتا : والمرات الأخرى ، حين يكون مسافراً ؟

إينيس : من الأسفار يعود دائماً متى أراد . القصر هو الخطر . (بحركة مفاجئة طالبة الصمت) . هس ! ألا تسمعين؟

أمارانتا : ماذا ؟

إينيس : شيء كخبب حصان ... بعيد ... (تتنصتان كلاهما) .

أمارانتا : لا أسمع شيئاً . لعلها الريح بين أغصان الحور .

إينيس : (تجلس على كرسي واطىء قرب آلة خياطة . تتناول منها مرآة فضية) . أينام الأطفال بهدوء ؟

أمارانتا : كأني أراهم : خوان بقدمه السعيدة خارج الغطاء . ولا توجد وسيلة لتغطيتها . ديونيس قبضتاه مضمومتان . وبياتريس بغمازتي خدها كأنها حالمة . أيمكنها أن تحلم وهي جد صغيرة ؟

إينيس : (مفكرة . وتحدق في المرآة) . ثلاثة أبناء ...

أمارانتا : ومن يقول لك، لا ؟ نحن – النساء – نبدأ كل شيء أولاً. بالطبع ينتهي من بين أيدينا، أولاً. ألا تستمعين إلي ؟

إينيس : كلا ! ومعذرة. قولي : في أي سن تفقد المرأة جمالها؟

أمارانتا : لكن، فيما تفكرين يا روح الله ! أنت في السابعة والعشرين، ولا توجد فتاة شابة بجمالك.

إينيس : أنا، لا يهمني ...

أمارانتا : أيهمه هو ؟ ألا ترين كيف ينظر إليك ؟ لو نظرت الشمس إلى حقول القمح نظرته، لامتلأ العام كله بالغلال.

إينيس : شكراً، يا أمارانتا ... أعطيني الصندوق ... (حين تتوجه أمارانتا للبحث عن الصندوق الصغير الذي نعرفه. تطلب إليها الصمت مرة أخرى خافضة صوتها). هس ! أتسمعين الآن ؟

أمارانتا : هذا الخبب مرة أخرى ؟ إنه في داخلك . وفي صدغيك . (تحضر الصندوق الصغير لحفظ السبحة) . أرى عندك سبحات من ذهب وعاج ، ولماذا تفضلين دائماً هذه السبحة من بذر الزيتون ؟

إينيس : إنها تذكار من (بستان الصلاة) . قدمه لأمي أحد الحجاج الذي كان يسعى حافياً من القدس حتى كومبوستيلا [١] .

أمارانتا : مؤكد أن كومبوستيلا أعجوبة ، لوجود حجيج فيها من كل أقطار الدنيا .

إينيس : هي أعجوبة فعلاً . يوم ذكرى الرسول تسمع كلمات من كل اللغات ، وتتداول عملات من كل البلدان ، ويقصدها من بعيد ، خطاة غريبو الأطوار ، لا نعرفهم هنا . (تضم الرق إلى صدرها) .

---

(١) أوسانتياغودي كومبوستيلا ، مدينة في مقاطعة غاليسيا الإسبانية على المحيط الأطلسي ، فيها قبر أحد الحواريين ، الذي كان يقصده الحجاج من كل أرجاء أوربا في العصور الوسطى . (المترجم) .

أمارانتا : وهذا ؟ أهو تذكار آخر ؟

إينيس : نعم، هو تذكار. براغانثا، الأول من كانون الثاني ... (تتناول العود).

أمارانتا : أتغنين في هذه الساعة ؟

إينيس : بل سأتذكر. الغناء يشبه التفكير بصوت عال. (تلمس بعض الأوتار. تغني أغنية غاليسية قديمة حميمة كأنها همس).

عيناي تنطلقان مع البحر

باحثتين عن البرتغال

عيناي تنطلقان مع النهر

باحثتين عن صديقي.

أمارانتا : (التي انحنت على المشربية). تشيس ! ... اسكتي ... الآن، نعم يا سيدتي، الآن، نعم، أسمع خبب الحصان ! (يسمع خبب جماعي فوق أرض لينة).

إينيس : وأخيـراً ! (تتـرك العـود. تتناول المـرآة وتصلح شعرها).

أمارانتا : أتسمعينه ؟ لم أسمع وقعاً كوقع حوافر هذا الحصان.

إينيس : الليل يضخم الأشياء.

أمارانتا : يبدوان حصانين.

إينيس : لعل الضابط يرافقه.

أمارانتا : إن شـاء الله ! لكـن، كـلا. ولا همـا اثنان... ولا أربعة... وإنما مجموعة.

إينيس : مجموعة في الدارة ؟

أمارانتا : إنهم رجـال مسلحون... ويحيطون بالبيت ! جاء معهم ذلك العجوز الذي كان هنا ذلك اليوم، ولعب مع الطفل خوان... !

إينيس : الملك ؟ إذاً، ينبـغي أن يكون السبب قـوياً جـداً. (يسمع قرع المطرقة تحت). إنهم هنا !

أمارانتا : فراغوسو عند الباب... أترين أن أنزل أنا ؟

إينيس : لا ! لا تتركيني ! ... (طرقات).

أمارانتا : تشجعي يا سيدتي ... لعلها رسالة ...

إينيس : في منتصف الليل ، والملك بنفسه ؟ كلا ... معنى ذلك أن بدرو أصيب بمكروه ... ربما جلبوه جريحاً محمولاً على حصان ... (تغمض عينيها). لا ! (تسقط على ركبتيها). سيدتي مريم المجيدة : مئة جرح في جسمي، ولا جرح واحد فيه ! شفيعي ، سان ياغو : انقذه لي. ونذر علي أن أسير حافية القدمين إلى كمبوستيلا ... انقذه من أجلي !

الملك . يدخل خلفه باتشيكو. ألبار و كويو.

إينيس : ماذا جرى لابنك ؟

الملك : لابني ؟

إينيس : لا تنكر علي إشفاقاً. أهو جريح حقاً ؟ أجئتم تحملونه؟

الملك : هو لا يعنينا الآن.

إينيس : قل لي الأمر يا باتشيكو : أنت لا يمكنك أن تخدعني . أين بدرو ؟

باتشيكو : هو مع كبير الضباط ، في طريقه إلى مونتيمور .

إينيس : أهو أسير ؟

الملك : أكرر ، ليس هو المهم الآن . جئنا من أجلك .

إينيس : إذاً . كل هذه السيوف ، وهذه الرماح ، وكل هؤلاء الجنود والجياد جاءت لمواجهتي ؟تبارك اللّه !كنت فكرت في أسوأ الأمور .

الملك : أين الأطفال ؟

أمارانتا : نائمون ، ياسيدي .

الملك : (لباتشيكو) . اذهب معها . أيقظاهم ، وألبساهم .

إينيس : كلا ... ماذا تريد ؟ أجئت لتأخذهم مني ؟

الملك : لا تخافي . هم لن يصيبهم أي مكروه .

إينيس : (تحاول سد الطريق). لكنهم أولادي.

الملك : لم يعودوا كذلك. اذهب معها. (يخرج باتشيكو وأمارانتا). وأنتم، ضعوا الأسلحة وانتظروا. أنا سأنادي. (يعودون من حيث دخل كويو وألبار غونثالث).

إينيس و الملك.

إينيس : أمر في غاية الخطورة جاء بك إلى بيتي ؟

الملك : ألم تفهمي بعدُ؟ مجلسي حاكمك وأدانك.

إينيس : بأي جرم ؟ بسبب حبي لابنك ؟

الملك : هذا كان في البداية فقط. والآن بسبب المشاعر التي توقظينها في شعبي. شعب مغرم بكامله يمكن أن يقوم بحماقات لا يقوم بها أي رجل.

إينيس : لكنك تعلم أني بريئة.

الملك : ليس من الضروري أن تكوني مذنبة . صرت خطراً . لمواجهته لا يوجد إلا حلان . ولك الخيار بينهما .

إينيس : حلان ؟ ما الحل الأول ؟

الملك : الأول : إلغاء زواجك ، ثم زواج بدرو من الأميرة .

إينيس : إذاً ، أختار الحل الثاني ، يا سيدي .

الملك : كنت أخشى ذلك . لكن ، أتعلمين ما هو الحل الثاني يا إينيس ؟

إينيس : إذا لم أتخيله ، فحسبي النظر إلى عينيك .

الملك : ولديك القدرة على القبول به ، وأنت في ميعة الصبا والجمال ؟

إينيس : أي طريق بقي أمامي ؟

الملك : كلا ! لا يحق لك أن تمضي إلى الموت هكذا . قائد مجموعة الجند لديه أوامر باصطحابك إلى ملاذ

آمن. في البرتغال أديرة حتى الملك لا يستطيع دخولها.

إينيس : أيمكن أن يدخل بدرو و أولادي معي ؟

الملك : مستحيل.

إينيس : إذاً، ماذا تفيدني ؟

الملك : بأغلى ما تحبين ! قتلت آلافاً من الرجال، لكني لم أقتل امرأة واحدة.

إينيس : أي شيء كنت تأخذه عليهم، ولا تأخذه علي ؟

الملك : كانوا أعداء حرب ومجرمين. استعنت على الأولين بالحنق والحقد، وعلى الآخرين بالغضب أو العدالة. ازاءك لا أملك إلا العقل ... وهو سبب ضئيل أكثر مما ينبغي، يا إينيس !

إينيس : ألا تكفيك كلمات حياتك الكبرى : الواجب والقانون والزواج اللا شرعي !

الملك : هذه الليلة، لا . اصبت بالهرم فجأة وأحس ببرد يسبب لي رعدة .

إينيس : أفهم، أيها الملك المسكين ! لو كنت مكانك لارتعدت أيضاً . لكن لا تخدع نفسك . لست أنا من يثير لديك الشفقة . وإنما أنت ذاتك .

الملك : أنا ... ؟

إينيس : نعم، أنت . شيدت مملكة ذات مجد واسع . ويحزنك أن تضطر إلى تلطيخها في النهاية على هذا الشكل . قاتلت طول حياتك . والآن، إذ صار من حقك أن تنعم بالراحة، فإن ذكراي لن تسمح لك بالنوم . أليس كذلك يا ألفونسو المسكين !

الملك : اسكتي ! لا تعذبيني بالشك فوق عذابي . أرأيت مرة واحدة حاكماً يتوسل إلى متهم ؟ إذاً، أنا ذاك الحاكم . أحلفك بالمسيح، يا إينيس اعفيني من عذابك ! احلفك بحبك وأبنائك اعفيني من قتلك !

إينيس : آسفة يا سيدي . وماذا بوسعي أن أفعل ؟ في رقعة الشطرنج التي وضعنا اللّه فيها لست إلا بيدقاً . وأنت تحرك البيادق .

الملك : لا توجد إلا حركة واحدة ممكنة .

إينيس : هناك حركتان . بدرو أو الموت . حرك !

الملك : انتبهي إلى أنك تملين قرار قتلك بنفسك .

إينيس : منذ عشرة أعوام وأنا أعيش بالخوف منه وبانتظاره . حرك !

الملك : لكن . إلا مَ ترمين بهذا الجنون ؟ أي دين جديد تريدين أن تجعلي من نفسك ؟

إينيس : ارحمني ! فات الوقت طويلاً على الكلمات . حرك بيدقك !

الملك : حسن ! أنت أردته ! (ينادي بصوت عال) . باتشيكو ... كويو ! ... (تسقط إينيس منتحبة على

كرسي واطىء. يقترب الملك يراوده بصيص من أمل). وأخيرا ! لطالما جعلتني أنتظر هذه الدموع التي كان لا بد لها من أن تذرف. تشجعي يا عزيزتي! القائد سيكون رهن إشارتك ! ما رأيك ... ؟

إينيس : كلا، وشكراً ! . قضي الأمر. كانت سقطة مفاجئة، إذ تذكرت أولادي. إلى أين ذهبت بهم ؟

الملك : إلى القصر. سيقيمون معي وسيعاملون كأمراء أبناء ملوك.

إينيس : أأستطيع أن أودعهم ؟

الملك : لا ! سيكون ألماً لا جدوى منه.

إينيس : أقسم لك إنهم لن يروا مني دمعة واحدة. (تنهض). أأستطيع ؟

الملك : (بحسم.) لا !

إينيس : عانقهم نيابة عني. وعدني ألا يعلموا شيئاً عن وضعي إلى أن يستطيعوا التمييز.

الملك : لن يعرفوا ذلك.

إينيس : شكراً.

الملك : وداعاً يا إينيس! (يدخل رجال البلاط). أيها السادة، أقسم بالله، إنني قمت بكل ما هو ممكن لأنقذ هذه المرأة. وما بقي هو بين أيديكم. (يتجه نحو المخرج. يقف). للمرة الأخيرة... أريد كلمة... كلمة واحدة!

إينيس : وداعاً يا سيدي الكريم. (يخرج الملك. إينيس تنظر بهدوء إلى الرجال الثلاثة المضطربين).

إينيس، كويو، ألبار، باتشيكو

إينيس : لماذا تطأطئون رؤوسكم؟ أأنتم المتهمون؟

كويو : أريد أن أطلب منك شيئاً باسم الثلاثة.

إينيس : لست بحاجة لقوله . أنا أسامحك . وأسامح ألبار غونثالث . من الطبيعي أن نصفح عن الأعداء . لكن ، أنت يا باتشيكو ! ... أنت !

باتشيكو : اشتراكي ضروري . لو لم أكن هنا لقيل إنها جريمة .

إينيس : لا أفهمك .

باتشيكو : هما عدوان لك . وكان لا بد من وجود صديق لك . أتفهمين الآن ؟

إينيس : فهمت . (تلقي نظرة طويلة تودعُ أشياءها) . ألم يحن الوقت ؟

ألبار : لماذا نطيل الأمر ؟

كويو : أتحتاجين إلى شيء ؟

إينيس : لا أريد شيئاً . كنت أقول في نفسي ما أبعد كل الأشياء حين نراها لآخر مرة ! (إشارة بالصمت) . أتسمع خرير الماء هذا ؟

باتشيكو : إنه المونديغو . ألم تستمعي إليه ألف ليلة ؟

إينيس : لهذا السبب نفسه أقول ذلك. كنت تعودت النوم على هذا الصوت الحبيب. والآن فقط، أدركت كم هو رائع ! وهذه المعجزة بشعوري بالسعادة، كيف يتأتى لها أن تبدو طبيعية جداً ؟ وهذا الغصن الذي يتدلى على نافذتي ؟ أترى، قمت بشكره ذات مرة ؟

كويو : ليس لديك وقت تضيعينه في هذه الأشياء الأرضية. فكري فيما هو أعلى يا سيدة.

إينيس : أأصلي ؟ عند وصولكم، كنت ختمت صلاتي. لكني سأصلي هذه الليلة صلاة أخرى. أتحسن إلي مرة أخرى يا باتشيكو ؟

باتشيكو : قولي !

إينيس : لا تلحق بي تشويها. كنت أدعى « عنق البلشون». وفي عنق كهذا، ينبغي أن يكون عملكم في غاية السهولة.

باتشيكو : أعدك بذلك. صلي صلاتك يا إينيس. (ينتحون. كل منهم إلى جهة. وألبار في اتجاه القاع. إينيس توليهم ظهرها، وتتقدّم مكتوفة الذراعين دون أن تنظر أمامها. مرددة : «أغنية الصديق» كأنها صلاة.

إينيس : عيناي تنطلقان مع البحر

باحثتين عن البرتغال .

عيناي تنطلقان مع النهر

باحثتين عن صديقي .

عيناي تنطلقان مع الهواء

باحثتين عن حبيبي .

(باتشيكو ينظر إلى الآخرين نظرة كأنها أمر . الخناجر الثلاثة تشهر في آنٍ واحد . إينيس تغمض عينيها) .

عيناي تنطلقان ولا تعودان .

عيناي ضاعتا في جليد الموت .

(تطأطيء رأسها مادة عنقها . يتقدم الثلاثة ببطء مؤثر . لا يظهر على المسرح إشهار السلاح . يسمع لحن الرباب الممزق) . يسقط الستار .

المنظر الثالث

بقعة في الغابة في الطريق من كوئيمبرا إلى مونتيمور.

قمر. جذع ملقى فوق العشب. رباب بعيدة تعزف لحنا يترافق تقليديا مع (رومانس [1] النخلة) القديم.

على المسرح، بدرو الضابط وجنديان في كل جانب

الضابط: سننتظر طلوع الصباح هنا. أطلقوا الخيل، وأوقدوا ناراً كبيرة. (يخرج الجنود). أتشعر بالبرد مرة أخرى؟

---

(١) نوع من الشعر الشعبي الغنائي - الملحمي، ذو أوزان قصيرة وإيقاع سريع. نسج على منواله كبار شعراء إسبانيا من غونغورا حتى لوركا وغيرهم. (المترجم).

بدرو: أشعر بقشعريرة.

الضابط: لا شك أن لديك قليلاً من الحمى. ألن تستريح؟

بدرو: تصيبني هذه الموسيقى الممزقة بالانقباض.

الضابط: أحد الرعاة يعزف على الرباب.

بدرو: حين كنت أسمعها صغيراً، كنت أحلم دائماً بأشياء حزينة، فيها شيء ينذر بالشؤم. (أخذت الموسيقى تتلاشى).

الضابط: ليست الموسيقى ما يحزنك. كنت تحمل الحزن في داخلك مذ انطلقنا من كوئيمبرا.

بدرو: لعلها وخزة ضمير. ما كان ينبغي لنا أن نتركها أبداً وحيدة في سانتا كلارا.

الضابط: حظر الملك بشكل قاطع الاقتراب من الدارة.

بدرو: ماقيمة الأوامر إن كانت تهدف إلى إبقاء امرأة وحيدة محاطة بالأعداء ؟

الضابط: لن يجرؤ أحد عليها. ما عليك إلا الانتظار.

بدرو: لا أستطيع. عند بدء السفر، كنت أشعر بفراغ صبر تمليه الغريزة. وبعد ئذ، جاء الغم والحمى. والآن أشعر كأنني مربوط إلى سرير ملآن بالنمال. لا أطيق التحمل أكثر من ذلك. أيها الضابط، يؤلمني أن أقول لك، إنني لأول مرة في حياتي، سأحنث بكلمتي.

الضابط: أية كلمة يا سيد ؟

بدرو: وعدتك بأن أطيعك أسيراً. لكني لا أستطيع الوفاء بالعهد. ينبغي لي أن أذهب باحثاً عن إينيس فوراً.

الضابط: أهو فرار ؟ أفكرت في أن المسؤولية تقع بكاملها على عاتقي ؟

بدرو: هذا ما كان يوقفني. أقسم لك إنني لا أستطيع المضي أبعد. فلو وضعت جنودك أمامي، فسوف أعبر من فوقهم. ولو وضعت نفسك أمامي فسوف أعبر من فوقك. معذرة. لكنك تفهمني. أليس كذلك؟

الضابط: أفهم، يا سيدي. الجنون هو ما نفهمه خير فهم في البرتغال.

بدرو: شكراً أيها الضابط.

الضابط: الغابة كثيفة. والضباب أخذ ينتشر، أتحتاج إلى مرافقة؟

بدرو: كلا! حصاني يعرف كل الدروب إلى بيت إينيس وعيناه مغمضتان.

الضابط: سأجلبه لك بنفسي. لحظة! (يخرج. يسمع صوت الرباب مرة أخرى. يجلس بدرو متعباً على الجذع،

ورأسه بين ذراعيه. صمت. يسمع اللحن الحزين البعيد. ضوء أزرق على شكل شديد. تظهر إينيس بين الأشجار، شعرها محلول الذوائب وترتدي الثوب الأبيض الذي ظهرت فيه آخر مرة. عقدت في جيدها شالاً طويلاً أحمر بلون الدم. تقف صامتة متأملة بدرو. بطء إيقاع الحركة، ورتابة الصوت وحدهما تثبتان لا واقعية حضورها. يقترب اللحن. بدرو يبدو أنه يحس باقتراب السر. يرفع رأسه ناظراً إلى هذا الجانب أو ذاك. ثم يخطو بعض الخطوات نحوها).

إينيس و بدرو

بدرو: من؟ من هناك؟

إينيس: (تتقدم وهي تردد كلمات الرومانس).

إلى أين يمضي الأمير بدرو؟

إلى أين تسير يا حزني ؟

محبوبتك ماتت .

ماتت وأنا رأيتها بعيني .

بدرو : من أنت ؟

إينيس : ألا تعرفني ؟

بدرو : أسمع غمغمة ، لكني لا أميزها من صوت الريح ... أرى شبحا أبيض وأحمر ، لكنني لا أدري إن كان هو الضباب ...

إينيس : اللون الأبيض كان هدية منك . والأحمر ألبسنيه أصدقاؤك .

بدرو : بصعوبة أميز الكلمات ... هل أنت بعيدة جداً ؟

إينيس : أنا هنا ، لكننا في غاية البعد عن بعضنا . أنت في جانب فيه كل الأسئلة ، وأنا في جانب فيه جواب وحيد .

بدرو: صوتك حزين. ألم تكوني سعيدة؟

إينيس: عشر سنوات عشتها بسعادة. لكن أتعلم ما هي عشر سنوا ت من السعادة عند امرأة؟ أنت لا تعرف معناها يا بدرو، ولا تتخيله. إنها ثلاثة آلاف يوم من القلق وسط كل المخاوف الممكنة: الخوف من فقدان الشباب والجمال؛ والخوف من أن يصبح حبك عادة، ولذتك تعباً؛ والخوف من أن استيقظ ذات صباح فلا أجدك! والخوف من مجرد التفكير في أن تتخلى عن حبي. وينتابني أحياناً خوف هو أشد المخاو ف وأغباها، من أن أتخلى ذات يوم عن حبك، دون أن أدري كيف.

بدرو: سامحيني. ما كنت أتخيل أني جعلتك تعانين هذه المعاناة.

إينيس: أسامحك؟ لكن، ألن تتوصلوا - أنتم الرجال- إلى

فهمنا ؟ أتحسب أني لو عدت إلى الحياة سأتخلى عن دقيقة واحدة عشتها معذبة معك ؟

بدرو: أصبحت لا أسمع كلماتك. لكن صوتك يزداد بهجة كل مرة.

إينيس : ذلك أني أبدأ الآن سعادة كبيرة أخرى. لأن ما يبقى منا إلى الأبد هو تلك الهيئة التي نموت عليها. أنت مازلت تستطيع أن تبدل. ستمضي إلى شفاه وأذرع أخر. أما أنا، فصرتُ لا أستطيع. لقد نجوت! (يسمع اللحن مرة أخرى من كل أرجاء الغابة. تمر إينيس وهي تتبعه). بوركت الطعنات الثلاث التي قتلتني شابة وجميلة. لأني سأبقى شابة وجميلة حتى الأبد. بورك الذين قتلوني محبة. لأني أمتلك كل الوقت الأبدي لأستمر في حبك!.

بدرو : تريثي... لاتتركيني!

إينيس : لاأستطيع.. هذه الموسيقى تدعوني إليها. وداعاً يا حبي الغالي. شكراً لكل ما قلته لي. وشكراً لك كلما فكرت فيّ. (تبتعد ببطء، ومعها كلمات النشيد).

كان شعرها من ذهب

ويداها من عاج.

سبع كونتات بكوها

ومن الفرسان أكثر من ألف.

بدرو : إينيس!... إينيس!... (يبدو أنه يستيقظ. يهم بالانطلاق وراءها. يدخل الضابط).

بدرو - الضابط ثم فراغوسو والجنود

الضابط : سيدي.. أكنت تناديني؟

بدرو : ألم ترشبحاً أبيض يعبر من هنا؟

الضابط : إنها قطعة من الضباب .

بدرو : أسمعت الصوت؟

الضابط : إنهاالريح بين الغصون.

بدرو : كلا! لم أفهم الكلمات جيداً : لكن هذا الصوت... هذا الصوت سمعته ألف ليلة على مخدتي! إنها هي.. إنها إينيس!

الضابط : (يوقفه) اهدأ، ياسيد. هذه هلوسات... أنت محموم.

بدرو : ليست الحمى وحدها. ما هذا الحبل الذي يشد الخناق على حلقي؟ وما بال هاتين الركبتين اللتين تخونانني؟... وما هذا البرد في لب العظام؟ عسى لايعرف أحد ذلك في! لكن انظر إلى يدي. الخوف

يتجلى في يدي! الخوف في أحشائي! الخوف في عظامي! (تسمع أصوات مبهمة في الغابة، طالبة التوقف. يسمع فراغوسو متمنعا ومناديا).

صوت فراغوسو: أفلتوني!... سيدي... سيدي!

الضابط: ارفع يديك! من ينادي هناك! (يظهر جنديان ممسكان بفراغوسو. من الطرف المقابل يهرع جنود آخرون).

بدرو: فراغوسو... خلوا سبيله! (يفلتونه. فراغوسو يسقط منتحباً عند قدمي بدرو).

فراغوسو: أميري وسيدي!.

بدرو: أين إينيس، تكلم! أجلبتها معك؟ أهي أسيرة... منفية؟ تكلم: أين هي؟

فراغوسو: ماتت، يا سيدي.

بدرو: لا أصدق. ظننت ذلك لحظة، لكنه كان حلماً سببته الحمى... من رآها ميتة؟

فراغوسو: أنا رأيتها. حوالي منتصف الليل. كانت تصلي هاتفة باسمك.

بدرو: مستحيل! أقول لك مستحيل! ماتت إينيس ولا تنشق الأرض؟ ولا يزال القمر في مداره؟ ولا أزال أنا، على قيد الحياة؟ أيعني ذلك أن كل ما في الوجود كذب بكذب؟

فراغوسو: كانت ثلاث طعنات، ومجموعة من الجنود...

بدرو: اذكر أسماءهم؛ قلها بصوت عال!

فراغوسو: (ناهضاً). كويو، ألبار غونثالث، باتشيكو.

بدرو: اسمعوها أيها الجنود! كويو، ألبارغونثالث، باتشيكو. لا تنسوها أبداً. لكن، حذار أن يمسهم أحد!

أنا سأتولى أمرهم وحدي ! أنا وكلابي سنطاردهم في الغابات وفي الجبال. أفضل صيد في حياتي... من كان معهم أيضاً ؟

فراغوسو: هم ثلاثتهم وحدهم.

بدرو: كذب! وحدهم لن تواتيهم الجرأة أبداً. شخص عالي المقام كان يحمي ظهورهم، من هو ؟

فراغوسو: بحياتك، لا ترغمني على ذكره.

بدرو: اذكره. اذكره ولو احترق فمك كما يحترق فمي. أكان أبي ؟

فراغوسو: هو نفسه.

بدرو: أقسم على ذلك.

فراغوسو: أقسم بالصليب المقدس: كان الملك ضالعاً معهم!

بدرو: (يتراجع لحظة خائراً). أسمعت أيها الضابط ؟ إن كان هذا الرجل كاذباً، اربطه بذيل حصانك واجرِ به. لكن إن كان صادقاً، فلتحترق الأرض بأركانها الأربعة. (يتقدم محموماً منادياً في كل الاتجاهات). إلي، أيها الضباط ! إلي يا فرسان السيف والرمح... كل الأسلحة ضد أبي ! هلموا يا صيادي الدوورو... يا فلاحي مينيو... يا رعاة تراس أوس مونتيس !... شعبي كله في مواجهة الملك. وأنت أيّها الذراع المسعور؛ وأنت أيها الصدر المشحون بالمرارة... أنت يا أحشائي ! دمي كله لقتال أبي ! (يجرد سيفه ويشهره.) البرتغال ضد الملك !

الضابط: (يردد الكلمات ذاتها). البرتغال ضد الملك!

الجنود: البرتغال ضد الملك !... (عتمة، عند الصيحة الأخيرة التي يستجيب لها الشعب. دون توقف، تسمع في الظلمة أبواق الثورة وطبولها تدق من فوق

الجياد. في النهاية يسمع لحن الرباب متصاعداً جليلاً حتى ينحل في موسيقى أرغن دينية. يعود النور ببطء إلى قاعة العرش المزينة برايات وشعارات ذات منظور مزدوج على خلفية قماش أشرعة قوطية. سيدات، وفرسان، وقادة سلاح وجنود ورجال الكنيسة والشعب يقفون ساكنين بانسجام كرسوم على السجادة. على العرش إينيس كما ظهرت في الغابة دون الشال الأحمر، لكنها مغطاة بخمر بيض. دون انقباض ولا رنة حزن واحدة. امرأة ميتة جميلة وشابة ترتدي ثياب العرس. بدور يلقي على كتفيه معطفاً بسيطاً. أحد الوصفاء يحمل راكعاً التاج الموضوع على وسادة قرمزية. أخذت الموسيقى تضعف، لكن دون أن تتلاشى!).

الضابط: (يقرأ الإعلان) أيها الشعب والسادة: انتهت الحرب

بين الأخوة. عوقب مقترفو الجريمة، وانتقل ملكنا الكبير ألفونسو إلى مثواه الأخير، أكرم الله منزلته عنده. ننصب ابنه بدرو الأول ملكاً على المملكة، ونعلنه سيداً لنا، ونقسم على خدمته وطاعته بإخلاص. (يتوقف عن القراءة) ليبارك الله على رأسه إرث سبعة ملوك. (يمسك المونسنيور التاج ويقدمه لبدرو).

بدرو: ليس من حقي هذا التاج. رأس آخر أجدر به مني حتى ما بعد الموت. فلتمنحنا هذه المرأة التي قتلناها روحاً جديدة. ولتعد صورة حبها الحب إلى الجميع. (يركعون جميعاً، بينما يضع بدرو التاج على رأس إينيس). حفظكِ الله، يا دونيا إينيس ملكة للبرتغال. (يركع على الأرض. يقبل يدها. دقات أجراس شكر).

ستار

ختام

الفهرس

١٠٠٠ ط ١/١٢/٢٠٠٠





الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق - ٢٠٠٠

سعر النسخة داخل القطر ١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ٢٠٠ ل.س